الثقافة والأدب والإعلام
في معركة التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي

محمد السعيد مضيه

١ - جدلية الثقافة والادب والاعلام

تلتحم الثقافة بقضية الانسان والموقف من الانسان، باعتباره كائنا يتميز بالادراك والارادة، فالثقافة في نهاية الامر تترجم الى مواقف اجتماعية من الاحداث والمؤسسات والظواهر الاجتماعية ومن الطبيعة كذلك، وفي هذا العالم يدور صراع حاد ومعقد من أجل تشكيل وعي الانسان وصياغة عناصر ثقافته للتحكم في مواقفه ازاء القضايا الاجتماعية، ولا يدور هذا الصراع في فراغ مجرد، انما هو جانب من الصراع السياسي، صراع المصالح المتناقضة داخل كل مجتمع وعلى نطاق الكوكب الارضي، فالثقافة أولا وقبل كل شيء قضية سياسية قضية اجتماعية اما ان تكون للانسان والتطور الاجتماعي، وإما ان تكون ضد الانسان وضد التطور الاجتماعي.

فالصراع، اذن يدور في الاساس بين ثقافتين، ثقافة انسانية تعزز سيطرة الانسان على بيئته الاجتماعية والطبيعية، وثقافة تغرّب الانسان عن بيئته وتضعه في تناقض مع مجتمعه وتلهيه عن واجبه الاجتماعي.

ومنذ أن أقامت البورجوازية سوقها العالمية، حيث استخدمت رخص سلعها مدفعية هدمت اعلى أسوار العزلة وحطمت اعتى مقاومة ومهدت الارض لاقامة مصالحها مؤسسات اقتصادية مالية تمارس النهب.. منذ ذلك الحين فرضت البرجوازية ثقافتها مثالا للعالم ومنحتها طابعا كونيا. وبناء عليه اخذت ثقافات الشعوب تتطور اما في رعاية الثقافة البرجوازية او في الكفاح ضدها مطورة تلك العناصر الديمقراطية من تراثها الثقافي الذي عكس حنين الانسان الى السعادة والعدالة.

والثقافة مركب من العناصر، ذهني، معرفي يتمثل في نظرات عن البيئة الطبيعية والاجتماعية تدرك جوهر قوانينها وعمل ظاهراتها، توسع من سيطرة الانسان على واقعه وتزيد من حريته في تغيير هذا الواقع. وعناصر نفسية تتمثل قيما ومعايير ومثلا تشكلها تلقائيا تجارب الحياة اليومية ونمط المعيشة وبذا فالنظرة الزاعمة ان للغرب ثقافة عقلانية وللشرق ثقافة روحية انفعالية انما يعبر عن نظرة عنصرية تبريرية، تزعم تفوق الغرب ومركزية حضارته وتبرر وصاية الامبريالية على مقدرات الشعوب التابعة، والحقيقة انه لا نشاط اجتماعيا يتحقق بدون حافز نفسي وروحي ومعارف موضوعية بدونها لا يتم احداث التغيير المنشود. فبالنشاط الاجتماعي نختبر صدق النظرات ونكتسب معرفة اشمل واعمق توسع السيطرة على البيئة المحيطة.

والنشاط الاجتماعي للفرد او المجتمع وما يثمره من خبرة وطاقة روحية تتراكم في الوعي والوجدان يشكل الاساس لاستيعاب، وتمثل الثقافة غير المباشرة التي تتوفر من خلال التعليم وعبر قنوات الاعلام العديدة. وفي هذه المرحلة من حياة البشرية يتعاظم التفاعل بين ثقافات الشعوب بتأثير وسائل الاتصال الكونية التي ضيقت بتكنولوجيتها المتقدمة من رقعة العالم وحولته الى بنوراما تستعرض مشاهدها يوميا. واخذ يتعاظم تأثير الاحداث وتطوراتها على وعي ووجدان الشعوب ويوسع من ثقافتها بوتائر متسارعة. وبات اي حدث في أي رقعة من العالم يثير انفعالات الغضب او السرور لدى الفرد العادي في ابعد زاوية من زوايا المعمورة دلالة على تشابك الاحداث بتشابك المصالح المشتركة بين الشعوب. فهي تجتمع على قضايا مشتركة ويحدها عدو واحد هو الامبريالية ونزعاتها العدوانية واللصوصية. وبسبب هذا التأثير تهتم الدوائر الامبريالية غاية الاهتمام بموضوع الاعلام وتوظفه لاغراضها ومصالحها لتشويه الوقائع وطمس الحقائق او تزويرها وترويج تبريراتها للممارسات والتصرفات التي تنفذها مصالح الشعوب وقضاياها، فقد كان للاعلام اسلوبان في عرض الوقائع وتقديم الاحداث، اسلوب موجه لابراز الحقيقة وعرض الاتجاه الحقيقي لسير الاحداث في العالم، واسلوب موجة ايضا لطمس الحقيقة او تزويرها.

ويبقى الفن ومنه الادب اقدر الانتاجات الثقافية على تغيير الانسان ورفع مستوى ثقافته، ولا يتوقف على الفن في وظيفته اي شكل اخر من اشكال الوعي، ففي الفن تلتقي جميع عناصر الثقافة المعرفية والاخلاقية والجمالية، واذا كان الفن واقعيا يعكس بصدق جوهر وقائع الحياة الاجتماعية ويختزل الواقع في نماذج فنية مركزة بالخبرات والتقييمات، فان دوره فعال في تنمية الشخصية المتكاملة للانسان. وبفضل بنيته الداخلية فان الفن يثير لدى المتلقي توترات انفعالية تحيل من تجربة الفنان ونظراته الى الكون والحياة وتقييماته تجربة مباشرة للمتلقي وطاقة روحية ايجابية.

ومن جهة مقابلة تتوقف فاعلية الفن على سعة ثقافة الفنان وعمق تجربته وممارساته الاجتماعية، فالعلاقة متبادلة وتفاعلية بين الفن والثقافة.

وقد تطور الفن والادب عبر العصور مع تطور الثقافة الانسانية واكتسبت انماطها وطابعها الطليعي بفضل مسايرته لتطور الثقافة. والدراسة التاريخية للفن والثقافة تبين ان الكلاسيكية فالرومانسية فالواقعية النقدية فالواقعية الاشتراكية انما نشأت وتطورت بتطور الثقافة الانسانية على مستويات ارقى وبتعمق ارتياد الثقافة لواقع الحياة وسبر اغوارها. كما جاءت الرمزية والسريالية والتجريدية انعكاسات لواقع الثقافة البرجوازية في مرحلة انتكاستها الرجعية، مرحلة تعفنها وفقدانها الافق التاريخي ووقوفها بوجه التقدم.

ان الفن والادب يتضمنان جانبا معرفيا اعلاميا، جانبا يكشف الحقيقة الجوهرية ويعكس الواقع الاجتماعي في فترة تاريخية بكاملها. وبالمقابل فان حرية الاعلام - تحرره من التأثير المشوه والمزور وتحرره من سطوة الرجعية - يولد زخما فكريا ينعكس في ازدهار الفن والادب وترسيخ التقاليد الثقافية.

وتتجلى جدلية الثقافة والادب والاعلام في مرحلة الانبعاث للثقافة القومية العربية، مرحلة التنوير.

٢ - مرحلة التنوير وتطور الثقافة العربية البرجوازية

في منتصف القرن التاسع عشر تفتحت العيون العربية من سبات القرون على صخرة صماء من الاستبداد والجهل. فالاستبداد والقهر العثماني يسنده استبداد واستغلال اقطاعي رغم الجهل والامية لدى الجماهير العربية في كل الأرجاء ومن ثم ناصب المناضلون القوميون العرب العداء للاستبداد السياسي والجهل. فحملوا الجهل مسؤولية جميع علل الشرق واعتبروه سبب انحطاط الاخلاق واساس الانهيار الروحي والضعف السياسي والاجتماعي. وكرسوا طاقاتهم لنشر التعليم والمعرفة وعملوا على احياء اللغة العربية وتطوير مفرداتها وحاربوا الخرافات والتعصب والتقاليد الجامدة، تلك العقبة الكأداء في وجه التاريخ.

ادخل المنورون العرب لاول مرة في التاريخ مفهوم الشعب كتجمع اجتماعي يسمو على الطائفية وتفاوت الثروات ويتجاوز التناقضات الاقتصادية، وحملوا مفهوما انسانيا عن الفرد، كائنا يتمتع بالعقل والارادة، الا انهم لم يجدوا غير نور المعرفة قاطرة للتاريخ.

هكذا جاء رواد الحركة القومية العربية وايديولوجيوها منورين ديمقراطيين استخدموا الصحافة والانتاج الادبي اداتين في نشاطهم التنويري، فتضافر عبر نشاطهم الاعلام والانتاج الادبي في مجهود ثقافي اضطلع به افراد النخبة المثقفة والطليعية وصولا للاحياء القومي وتصفية الجهل.

ظهرت صحيفة «حديقة الاخبار» عام ١٨٥٨ ثم مجلة «الجنان» البيروتية منبرا للافكار التنويرية ينشر على صفحاتها بطرس البستاني ومن بعده ولده سليم البستاني مبادىء المعرفة ويطوران اللغة العربية بابتكار المفردات والمفاهيم الجديدة لاستيعاب الافكار المتولدة وتحرير الكتابة العربية من تعقيدات النثر المسجوع والاسلوبية التقليدية.

واصدر أديب اسحق صحيفة «التقدم»، وأحمد فارس الشدياق مجلة «الجوائب» عام ١٨٦٠، وتمتعت هذه بتأثير كبير على جمهور القراء العرب واكتسبت شهرة واسعة النطاق. واصدر يعقوب صروف وفارس النمر مجلة «المقتطف» التي استرشدت بالمعرفة سلاحا فعالا لتحويل المجتمع، ومفتاحا لحل كافة المشاكل الاجتماعية السياسية.

وفي مصر صدرت صحيفة مصر، والتجارة منبرين للافكار التنويرية الوطنية حملتا شعارات الوطن وحرية الفكر وحرية الفرد. ودشنت صحيفة اللواء المصرية عام ١٩٠٠ بداية مرحلة جديدة للحركة القومية التحررية في مصر.

وفي تونس ظهرت اول صحيفة للمنورين التونسيين في عقد الثمانينات من القرن التاسع عشر ونشرت افكار القومين التونسيين.

كانت هذه الصحف ذات رسالة فكرية ايديولوجية وثقافية. وكانت صحفا مكافحة تصدت للاستبداد والتجهيل وجلبت على نفسها حملات متجنية من جانب سدنة الاستبداد وايديولوجييه.

والى جانبها ودعما لرسالتها حمل الانتاج الادبي والجمعيات الفكرية والعلمية عبء النضال ضد الاستبداد والجهل وبعث اللغة العربية بوجه سياسة التتريك وتفضيل اللغة التركية على العربية في المعاملات الرسمية والتدريس.

في بيروت شرع بطرس البستاني كتابة المجلدات الاولى من موسوعة (دائرة المعارف) التي حوت معلومات قيمة في ذلك الحين عن اللغة العربية وتاريخ العرب وتاريخ الثقافة العالمية.

واخذت تبرز الجمعيات التنويرية الادبية، فأنشأ بطرس البستاني المدرسة الوطنية الاولى عام ١٨٦٣، درس فيها اللغة العربية وعلوم الطبيعة. وتشكلت جمعية «زهرة الادب» الادبية التي كانت تجتمع سرا للاستماع الى محاضرات حول التسامح الديني والحرية الفردية والفكرية ومفاهيم الوطن والامة.

وعملت الجمعية العلمية السورية على نشر مبادىء الاتحاد والاخوة وحاربت التعصب الديني.

وفي عام ١٨٥٢ اصدر احمد فارس الشدياق روايته «الساق على الساق فيما هو الفارياق».

واصدر فرنسيس فتح الله مراش في بيروت عام ١٨٦٦ روايته «غابة الحق» وفيها يقهر جيش مملكة الحرية جيش مملكة العبودية لان الجيش الاول يقوده الوزير حب السلام ومسلح بالاستنارة والعلم.

وتألق نجيب حداد الشاعر والكاتب المسرحي ورجل الثقافة البارز علي مبارك ورفاعة الطهطاوي ثم عبد الله النديم في مصر. وبرز النشاط الادبي لأمين الريحاني وأديب اسحق وشبلي شميل وفرح أنطون وعبد الرحمن الكواكبي وكثيرون غيرهم.

في تونس والمغرب العربي برز خير الدين التونسي وسليم ابو

حجاب ومحمد بيرم الخامسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر منورين وينشرون افكارهم عن طريق الصحف والمؤلفات الفكرية. فأصدر محمد بيرم الخامسي صحيفة الرائد التونسي ثم صدرت عام ١٨٨٨ صحيفة «الحاضرة» التي التفت حولها كوكبة من المنورين التونسيين. وفي عام ١٨٩٠ اصدر عبد الرحمن الصنادلي صحيفة «الزهراء» الراديكالية التي روجت للافكار العلمانية وانتقدت اعمال الادارة الغربية مع الشعب.

وفي عام ١٨٩٦ تأسست في مدينة تونس جمعية «الخلدونية» التنويرية ووضعت على عاتقها مهمة نشر الثقافة والمعارف الحديثة لان المعارف محور المدنية.

كانت جهود المنورين الفكرية والصحفية مرحلة متميزة في التاريخ العربي الحديث، وبداية لنهوض ثقافي مثمر. وشكلت الصحافة في ذلك الحين منابر ثقافية وبؤرا لنشاط قومي ووطني تقدمي ومعلما بارزا في تاريخ العرب السياسي والاجتماعي والثقافي يؤشر لمرحلة انعطاف هام عن القرون الوسطى ومخلفاتها في الجهل والاستبداد.

وبتأثير الطموح الذاتي الى الحرية، بعد كبت دام قرونا عديدة، تزايد عدد الصحف القومية وحجم الانتاج الادبي المنشور. وخلال الفترة ١٩٠٤ - ١٩١٤ وحدها ارتفع عدد الصحف الصادرة في سوريا من ٤ الى ٨٧ صحيفة. وفي فلسطين من صحيفة واحدة الى ٣١ صحيفة وفي العراق من ٢ الى ٣ صحف وفي الحجاز صدرت ست صحف[١].

مصادر الفكر التنويري العربي

في القرن التاسع عشر برزت سعة الفجوة بين الأوضاع الاجتماعية داخل الأمبراطورية العثمانية والعالم المتحضر في أوروبا، وتجلى بسطوع تخلف هذه الأوضاع حتى للباب العالي وأعوانه في الاستانة. فهزائم الجيوش العثمانية في أوروبا لم تترك مجالا لانكار حاجة تركيا الى التحديث وادخال العلوم ومبادىء الادارة الحديثة.

في هذه الأثناء مدّت البرجوازية الاوروبية نفوذها على أربع زوايا المعمورة ومنها أقطار الامبراطورية العثمانية. اذ غدا رخص سلعها المدافع التي تدكّ أعلى أسوار العزلة وتحطم أشد قوى التعصب كرها للأجانب، فتشكلت السوق العالمية التي أخضعت شعوب العالم للمثال البرجوازي.

ومع هذه السوق تشكلت أيضا الثقافة العالمية. واكتسبت الثقافة البرجوازية طابعها الكوني، ولأول مرة في التاريخ كفّت ثقافات الشعوب عن التطور العفوي التلقائي بناء على الملاحظة والتجريب. وغدت ثقافات الشعوب تتطور اما في كنف الثقافة البرجوازية أو الكفاح ضدها.

ومع حرص البرجوازية الأوروبية على نشر العناصر الثقافية التي تخدم مصالحها في الهيمنة الاقتصادية والسياسية وتروّج للتفوق العرقي الأوروبي الا أن الثقافة القومية تستوعب تلك العناصر المنسجمة وحاجات تطورها فهي تتلقّف العناصر الملائمة لنزعاتها الليبيرالية وتطلعاتها التنويرية المناهضة لاستبداد الاقطاع وتعسف القرون الوسطى.

ومما له أهمية في هذا الصدد الاشارة الى ان هذه الافكار تعود لمرحلة في تطور الثقافة البرجوازية تجاوزتها البرجوازية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فهي أفكار البرجوازية الثورية المناهضة للاقطاع والاستبداد الاقطاعي. بينما البرجوازية الاوروبية تعيش مرحلة الامبريالية، مرحلة العفن والاحتضار والتخلي عن كل نزعة تقدمية أو انسانية وتدوس باقدامها النزعات البرجوازية للتحرر وتصفية مخلفات القرون الوسطى في بلدان الشرق.

وتولع المنورون العرب بالأفكار التنويرية الفرنسية، افكار فولتير وروسو وديدرو ومونتسكيو، واقبلوا على تعلم اللغات الاوروبية. وانتشر بشكل واسع في المشرق العربي كتاب العقد الاجتماعي لروسو فقد وافق حقه الطبيعي تطلعات العرب في ذلك الحين. ومنه اقتبسوا آراءهم عن الانسان والمجتمع: الشعب مصدر السلطات، المساواة والاخاء ومسؤولية السلطة التشريعية امام الشعب. وغدت افكاره محور التفكير السياسي التنويري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

اكتسب الدستور في نظر المنورين قيمة صانع المعجزات والقدرة السحرية التي تغير كامل الأوضاع الاجتماعية والسياسية في الوطن العربي.

والى جانب «العقد الاجتماعي» تعرّف المنورون العرب على رواية «اميل» لروسو. وتم الأطلاع اما مباشرة أو عن طريق اللغة التركية. فقد ترجم الى هذه اللغة الكثير من الأدبيات الاوروبية. ترجم الكاتب التركي البارز عبد الحميد ضياء رواية اميل وترجم معاصره نامق كمال مصنفات روسو وكوندورسيه وبيكون. وترجم المنور التركي جودت كتاب «مدى الاستبداد» للمفكر الايطالي. الفيبري والذي يبدو واضحا تأثر الكواكبي به في كتابه «طبائع الاستبداد». وترجم خير الدين التونسي كتابات مونتسكيو.

لقد تأثرت الكتابات العربية بمضمون وشكل الكتابات الاوروبية، وخاصة الرومانسية الفرنسية والبريطانية. كان الاتجاه الرئيسي في الادب الاجتماعي اخلاقيا تعليميا، وفي الابداع الادبي اخلاقيا نقديا. وكان الغرب يبدو في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين نموذجا للتطور السياسي الاجتماعي بالنسبة لجزء لا بأس به من المثقفين العرب. ومن ذلك النظام رسم المنورون العرب صورة للمجتمع العربي المثالي.

الا أن المنورين العرب لم يعنوا بتاتا بالاوضاع الاقتصادية وعلاقاتها الاجتماعية كما انهم لم تنفذ رؤيتهم الى الاسباب الاقتصادية والعلاقات الاقتصادية للنظم الاوروبية والسياسية الاوروبية. وسبب ذلك أنهم تعاملوا مع المواقع على مستوى الظاهر منه وعجزوا عن النفاذ الى جوهر علاقاته الاقتصادية. وبذا توقفوا عند مستوى النقد. انتقدوا الاستبداد والجهل - هاجموا التقاليد البالية وقيم العصور الوسطى: التعصب وانعدام التسامح والقدرية والقيمة الوضيعة للانسان المنتج وللمرأة والآراء الصوفية والنظرة المحقرة للحياة الانسانية.

لقد طرح الفكر التنويري التساؤلات واجاب عليها بالرفض والغضب، ولكنه بقي داخل اطار العلاقات الاجتماعية، فصرخ وضرب رأسه بجدران الواقع كي ينتهي في اغلب الاحيان الى التشاؤم واليأس لا من تجارب السلطة مع دعواته الاصلاحية وحسب، بل من تجارب الجماهير مع طروحاته. واذا قصر هذا الفكر عن إدراك الواقع العربي فالأحرى به أن يقصر عن إدراك التناقص الحاد في الواقع الأوروبي.

فبسبب عدم رؤية التناقضات الاقتصادية للنظام الامبريالي وتناقض ثقافة عصر التنوير الاوروبي، فقد اعتبروا الممارسات الامبريالية مجرد ممارسات لا أخلاقية مناقضة للنظام نفسه. توقف المنورون عند الانبهار بالغرب وربما حذروا من عاداته واخلاقه المتناقضة مع المجتمع العربي. بل ان فرح اسحق دان الاستعمار واعتبره جريمة بحق البشرية الا انه تناقض بين قيم الحضارة وممارساتها ولم يَرَ الكولونيالية صفة ملازمة للرأسمالية في مرحلتها العليا.

وسنرى فيما بعد كيف سيطرت هذه الازدواجية على الثقافة القومية العربية في النصف الأول من القرن العشرين، مما اقعدها عن القيام بالدور الثوري المعبىء للجماهير العربية.

والى جانب عناصر الثقافة البرجوازية استلهمت الحركة التنويرية عناصر التراث القومي. فقد استنجدت بعناصر التراث سلاحا ترد به سياسة التتريك وتتحدى الاضطهاد القومي الذي مارسه الاتراك العثمانيون. وكان إحياء اللغة العربية في الأساس تحديا لفرض اللغة التركية في اعمال الدواوين ومؤسسات الدولة والتعليم وابرازاً لما حوته هذه اللغة: من تراث انساني شامخ. لقد عبر احياء التراث القومي عن ظاهرة الاعتزاز القومي وعكس طموحات التحرر القومي للجماهير العربية.

فمن حاجات المرحلة الراهنة، اذن، تم انتقاء عناصر التراث، مثلما تم انتقاء عناصر الثقافة البرجوازية المتقدمة. فالحاجة وضرورات الواقع هي التي تملي مضمون التراث المستلهم. واذا اختلفت الحاجات والمصالح وتناقضت، تختلف وتتناقض النظرات الى التراث ويغدو لكل مصلحة اجتماعية عناصرها التراثية ونظراتها الى التراث.

استنجدت حركة التنوير بالمفاهيم العقلانية في مصادر التشريع الاسلامي وأحيا المنورون الاجتهاد باعتباره استنارة بالعقل والعلم في تفسير الإسلام. كان جمال الدين الافغاني من اوائل المنورين الذين أدخلوا مبدأ العقلانية في تفسير النصوص الدينية، وفق روح العصر وحمل الأفغاني على المفهوم الإقطاعي للإسلام والذي تجاسر على الإسلام وسطا على كل مضمون عقلاني انساني فيه ولم يبق منه الا على وجوب طاعة أولي الامر. أحيا المنورون التاريخ الغربي - الاسلامي وأزاحوا عنه غبار الاقطاع وعن الآيات القرآنية المضيئة والاحاديث النبوية وسير الخلفاء الراشدين النابضة بالديمقراطية والانسانية والإخاء والمساواة بين البشر.

وكافح المنورون النظرة القدرية وأكدوا حرية الانسان في تحديد مصيره واختيار قدره. ودعوا لتحرير أراضي المسلمين من السيطرة الكولونيالية الاجنبية. إلا انهم اكتفوا بمحاورة الكولونيالية والاستبداد السياسي دون ان يحشدوا القوى الكفيلة بالضغط عليها وإجبارها على التراجع أو الرحيل.

لم يكن الايديولوجيون المنورون ثوريين في نشاطهم الاجتماعي والسياسي ذلك انهم لم يعبروا عن مصالح طبقية تعي ذاتها. انهم وهم مثقفو البرجوازية الناشئة ويستوحون المثال البرجوازي، لم يحملوا مصالح طبقة متجانسة تعي ذاتها وتعمل لتصفية الأنماط الاقتصادية المعيقة لتطورها والعائدة الى القرون الوسطى. «فالافراد لا يشكلون طبقة الا بقدر ما ينهضون لخوض معركة مشتركة ضد طبقة أخرى. وفيما عدا ذلك فهم في حالة عداء متبادل في المزاحمة»[٢]. وبالنتيجة لم تتصدر حركة التنوير العربية حركة ثورية للجماهير الفلاحية المسحوقة تحت نير الاقطاع والاستبداد السياسي وضرائبه الجشعة ولم يستوحوا أشواق هذه الطبقة الواسعة في التخلّص من الاستغلال والاضطهاد المزمنين.

هكذا جاء تأثير الأفكار التنويرية محدوداً وضيّقاً بين الجماهير العربية، ولم تتحول الى قوّة مادية محوّلة للواقع العربي، وساعد في إضعاف أثرها الأمية المنتشرة بين الجماهير والقمع الضاري الذي كان يلاحق الأفكار التنويرية ويضطرها الى النشاط السرّي.

الا أنها بقيت نظرات اجتماعية تشكّل خروقاً في النظام الفكري للقرون الوسطى وتصدّعات وشروخاً في بنيانه القديم وتنتصر حركات جماهيرية مكافحة ضد الامبريالية واستعمارها الكولنيالي لتهز تخلّف العصور الوسطى من أساساته وتلقيه الى مزبلة التاريخ.

٢ - السياسة والثقافة في مرحلة النضال التحرري
ثورية الثقافة وثورية الادب

تخلت البورجوازية الامبريالية عن مبادىء البورجوازية الثورية المناهضة للاقطاع واستبداد العصور الوسطى، وتراجعت عن سيادة العقل في الفلسفة وركزت على الغيبيات وشككت بامكانية حل المشاكل البشرية المحلية والعالمية حيث أكدت أزلية العداء والقهر بين الأمم والشعوب. فركلت بالأقدام الحق الطبيعي للانسان في حرية الإرادة وللشعوب في تقرير المصير. لقد غدت البورجوازية الاوروبية في هذه المرحلة رجعية وتسلل الاحتكار والتعفن الى كل مسامات الحياة الاجتماعية السياسية والفكرية.

أما العناصر البورجوازية في الشرق فلم تحمل أصلا النزعة الثورية ازاء مخلفات القرون الوسطى. فهي قد تطورت عبر الصلات التجارية مع البورجوازية الاوروبية وحملت الخوف من حركات الجماهير وتنظيماتها النقابية والسياسية. وظلت، حتى وهي تصارع الكولونيالية، تحرص على تجنب الأسلوب الثوري في حل هذا الصراع. ولم تتعرض لعلاقات الاقطاع الاقتصادي مخافة أن يكون ذلك تعريضا لمبدأ الملكية المقدس لديها. لذلك غلبت على مواقفها المناهضة للكولونيالية نزعة ليبيرالية. والليبيرالي مستعد دوما لأن يهجر الديمقراطية ويناصبها العداء اذا ما اجتذبت الجماهير للدفاع عن مصالحها وحركتها من سبات القرون لتحقيق أهدافها الاجتماعية.

وبالنتيجة شاب فكر البورجوازية القومية ونشاطها السياسي ازدواجية لازمتها حتى تحقيق الاستقلال السياسي وبناء الكيانات الوطنية المستقلة وبرزت هذه الازدواجية في التفريق بين المجتمع البورجوازي الاوروبي ونظامه الأمبريالي، الذي لم تشأ أن تسبر أغواره، وبين ممارسات الكولونيالية في بلدان الشرق. وظل هذا الفكر يخاطب الكولونيالية بدعوة الاخلاق والمبادىء السامية التي تؤمن بها في بلدانها.

جاء في مذكرة الباشاوات الثلاثة، سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي عام ١٩١٩ الى المندوب السامي البريطاني «اننا نريد أن نكون أصدقاء للانجليز صداقة الحر للحر لا العبد للحر . نحن نطالب بالاستقلال التام، فالاستقلال ضروري، ومتى ساعدتنا انجلترا على استقلالنا التام نعطيها ضمانة معقولة على عدم تمكين دولة من استقلالنا والمساس بمصلحة انجلترا، فنعطيها ضمانة في طريقها للهند وهي قناة السويس بأن نجعل لها دون غيرها حق امتلاكها عند الاقتضاء بل نحالفها على غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ما تستلزمه المحالفة من جنود، ويمكن بقاء المستشار الانجليزي بحيث تكون سلطته صندوق الدين العمومي، نحن نعترف الآن أن أنجلترا أقوى دول العالم وأوسعها حرية وانا نعترف بالأعمال الجليلة التي باشرتها في مصر، فنطلب باسم هذه المبادىء أن تجعلنا أصدقاءها وحلفاءها صداقة الحر للحر[٣]. »

ولم تحل هذه المشاعر الدافئة دون اعتقال الباشوات فانفجرت الجماهير المصرية في ثورة ١٩١٩، وكما يقول الكاتب[٤] «استنكرت قيادة الثورة صراحة النضالات المسلحة التي خاضها الفلاحون في بعض أنحاء مصر وسرعان ما تدخلت لتمنع الجماهير منعا من اللجوء اليه ».

لم تحسّ الجماهير العربية بالاضطهاد القومي ابان سيطرة العثمانيين اذ وعت أن حكامها مسلمون، ورغم مرارة النهب باسم الضرائب والتجنيد الاجباري وخراب القرى بشكل تام فقد ركنت الجماهير الفلاحية الى الطغيان باستثناء انتفاضات متفرقة في أوقات متباعدة، لم تكن تستشرف أفق تصفية النظام الاقطاعي وعلاقته، ولم يأت المنورون مناهضين لنظام الاقطاع، وبعضهم وخاصة في مصر دعا الى فكرة الجامعة الاسلامية والتمسك بالخلافة العثمانية.

الا أن المجابهة الجماهيرية اندلعت زاخمة ضد السيطرة الكولونيالية للدول الاوروبية على انقاض الامبراطورية العثمانية، وظهرت الحركات القومية وحدثت الثورات الشعبية الواسعة في جميع الأقطار العربية. وخلال النضال الوطني التحرري دخلت الجماهير مدرسة النضال السياسي والنشاط الثقافي. فالسياسة هي العتلة الكبرى في نشر الثقافة على أوسع مجال وفي العمق، وفي العملية النشيطة لوضع الثقافة في متناول الجماهير العاملة، والثقافة في كل ما لديها من معارف وقيم هي من نتائج السياسة التقدمية، السياسة التي تنسجم فيها الأهداف والوسائل وتتوجه الى الجماهير بمنطق منسجم متماسك لا يسمح بالتناقض بين الغاية والوسيلة أو بين الدعوة والممارسة.

لا يتسع المجال هنا لاجراء دراسة منهجية علمية لتفاعل الثقافة والاعلام والأدب في المجتمعات العربية منذ الحرب العالمية الاولى. يكفي في هذا الصدد الاشارة الى معالم الأثر الذي تركته الأحداث السياسية طوال مرحلة الصراع ضد الكولونياليات الامبريالية على تطور الثقافة والادب والاعلام.

وبادىء ذي بدء يتوجب القول ان ذلك التطور لم يمضِ صاعدا على جميع الجبهات. بل كان سيرورة تندفع بتفاعل الصراع الثقافي مع السلطة السياسية المنتدبة وركائزها المحلية، ومع الازدواجية الثقافية في الفكر القومي داخل حركة التحرر الوطني.

ففي معظم الأقطار العربية تشكلت منظمات نقابية للجماهير العاملة تلتها منظمات سياسية، وغدا النشاط النقابي والسياسي والنشاطات الجماهيرية الثورية الادوات الاعلامية المتاحة لتوعية الجماهير على واقعها ورفع منسوب ثقافتها الا أن ذلك كان يتم ضمن إطار قومي.

ذلك أن السلطة الكولونيالية فرضت من جهة قيودا ثقيلة على حرية الكلام والتجمع والتنظيم والنشاط السياسي. وفرضت من نفسها مع ركائزها من قوى الاقطاع المحلي حامية للتراث والاخلاق العامة والتقاليد التي فرضت وبقوة السلطة أيضا - تهديدا جديا لها من جانب القوى السياسية الثورية. وشنت السلطات المنتدبة حملة اعلامية عاصفة لم تهدأ من التشويهات والزيف ضد القوى المعادية بقصد عزلها عن الجماهير وترك الأخيرة بدون قيادة. في الواقع تحالفت الكولونيالية الاوروبية مع أكثر مخلفات العصور الوسطى في العالم العربي رجعية وفسادا وعفونة، وفي نفس الوقت شجعت أفكار التحلل من التراث والتقاليد وروجت للاقومية في الفكر والانتماء واحتضنت ممارسات الفهلوة والنفاق الاجتماعي وازدواجية المعتقد، تلك الممارسات التي أخذت شرعيتها من المؤسسات الاقتصادية الكومبرادورية التي غذتها الكولونيالية، باعتبارها تجليات لروابط التبعية الاقتصادية مع الغرب.

ان كل من يراجع أدبيات فترة العشرينات من هذا القرن يذهله مدى الاتساع والغزارة في حملات التشويه ضد القوى الثورية المحلية بشكل لا يبرره نفوذ هذه القوى أو مدى خطورتها على الأوضاع.

رمت السلطات الكولونيالية بالشيوعية والالحاد والمروق عن التقاليد والدين كل قوة ثورية ترفض سيطرتها او تتحالف مع هذه القوى وحتى تحجم عن الدخول معها في تناقض جذري. وفتحت السجون والمعتقلات للقوى المعارضة واستخدمت أساليب العنف والقمع الضاري في التعامل معها. وبهذه الأساليب ابقت القوى الكولونيالية على تفسخ الحركات القومية وتشردها.

في هذه الاجواء جرت مراجعة تامة لأفكار مرحلة التنوير في مجالي الفكر الديني والفكر العلماني. لم يبقَ للعقل والعلم وظيفته في تفسير التراث، وطمس الاجتهاد الذي نادى به الأفغاني وعبده بل وطمست دعوات الآيات القرآنية في تمجيد العقل والعلم، الا أن القوة الاجتماعية الدافعة لطموحات الجماهير كانت أقوى من كل ما اعترضها من أساليب سياسية وتشويهات ثقافية.

في فلسطين تواصل القمع العنيف للقوى الثورية من قبل الحركة

الصهيونية وسلطة الانتداب. ورغم ذلك تفجرت الانتفاضات الدموية بين الفلاحين وجنود الانتداب البريطاني في مرج ابن عامر ووادي الحوارث في الاعوام ١٩٢٥ و١٩٢٩، وانفجرت انتفاضة عام ١٩٢٩ حيث استنجد على اثرها جمال الحسيني أمين سر الحركة القومية الفلسطينية (اللجنة التنفيذية العربية) بعواطف الامبريالية البريطانية في مقال نشره بصحيفة ديلي ميل اللندنية ١٩٢٩/١١/٢٢ اذ قال «لكننا نعلم أننا أخذنا نضيع نفوذنا بين الفلاحين. فاذا لم نحصل شيئا لإزالة الجور فاني أخشى من تجدد الاضطرابات والمشاكل لا محالة»[٥].

ولكن المشاكل والاضطرابات شقّت طريقها، فشكلت الحركة العمالية نقاباتها في أوائل عقد الثلاثينات وتحركت الجماهير العربية في يافا عام ١٩٣٣ واهتز الوجدان الشعبي في فلسطين بهزيمة ثورة الشيخ عز الدين القسام الذي قدم باستشهاده البطولي تفسيرا عصريا للدين الاسلامي. وتهيأت الأذهان لثورة ١٩٣٦ وبطولاتها الجماهيرية التي فجرت طاقات الجماهير وصعدت مبادراتها الثورية.

على اثر هذه الأحداث برز المثقفون والأدباء بأماني الجماهير وتطلعاتها وعكسوا بطولاتها. فقد اختمرت خبرة ثقافية وضعت الثقافة على منعطف جديد. اذ كانت الحركات الجماهيرية أداة إعلامية تثقيفية فتحت أعين الجماهير على طبيعة معركتها والتناقض الرئيسي في المجالين المحلي والدولي وثقّفتها بروابطها المحلية والعربية والدولية.

وتشكلت في هذه المرحلة جمعية الطلاب في فلسطين وحددت أهدافها في المهمات التالية:

١ - رفع مستوى الطالب العربي الثقافي والاخلاقي وبث روح الوطنية الصحيحة والرجولة الكاملة في نفسه.

٢ - ايجاد رابطة متينة بين جميع الطلاب العرب في فلسطين وسائر الأقطار العربية والتعاون في سبيل مبادىء الوحدة العربية.

٣ - خدمة الشعب عن طريق مكافحة الامية بين الفلاحين والعمال ونشر العلوم، هذا الى جانب تشجيع الطلاب على التفكير الحر ومحاربة الرجعية والطائفية وتنشيط الفنون الجميلة والرياضة.

ثم تشكلت جمعية المثقفين العرب جسرا يربط جمهور المثقفين بالحركة الوطنية ويروج لمهامها بين الجماهير ومنظماتها النقابية والسياسية.

ونهض الشعر الوطني بعبء المعركة يعكس لواعج القلق من العواقب الوخيمة للهجمة الصهيونية المتطاولة في كنف الاستبداد. هذا عبد الرحيم محمود يتنبأ:

المسجد الأقصى أجئت تزوره ... أم جئت من قبل الضياع تودعه
وغداً وما أدناه لا يبقى لنا ... دمع لنا يهمي وسنّ نقرعه.

وابراهيم طوقان يلتقي مع الوطن على صراخ الفاجعة لمجد الفدائي، ذلك الذي:

حملته جهنم ... طرفا من رسالته
هو بالباب واقف ... والردى منه خائف

فاهدئي يا عواصف ... خجلا من جراءته
صامت لو تكلّما ... لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته ... خلق الحزم أبكما
وأخو الحزم لم يزل ... يده تسبق الفما
لا تلوموه قد رأى ... منهج الحق مظلما
وبلادا أحبها ... ركنها قد تهدما

كانت صرخات قلق وتفجّع شبه يائسين، تطرح الأسئلة وتحار أين تجد الجواب. كان قلقا رومانسيا يتفجر بحمم النقمة والاحتجاج.

برز الشعر الاجتماعي الذي ربط مصير الوطن باستيقاظ الجماهير وراح ينفخ في البوق ويصيح كديك الصباح:

سيروا على وضح النهار ... فالحق من نور ونار

الى أن يقول:

يا أيها الشعب النبيل ... أمنت من شعر الغبار
أنت الذي تهدي السبيل ... من اليمين الى اليسار
قرر مصيرك أنت ... لا من يبصمون على قرار
ايه شعوب العرب أنتم ... مبعث الأمل الوحيد
سيروا على الترب المخضب ... والثموا أثر الجدود
حرية الانسان بالدم ... تشترى لا بالوعود

ومع هذه الكوكبة الماجدة راح القاصّون يعكسون الهوية الوطنية في ابداعاتهم الأدبية ويرسمون نماذج شعبية تنبض عروقها بأشواق التحرر الاجتماعي والقومي فتعانق انتاجهم مع أشواق الجماهير الشعبية، عكسوا معاناتها وطالبوا بحقها في الحياة الكريمة. لقد نجح الأدباء الفلسطينيون منذ أواخر الثلاثينات في عكس الصراعات الاجتماعية ودمجها ضمن الصراع القومي الرئيسي.

وفي شرقي الاردن تميّزت الحياة الاجتماعية بسيادة العلاقات العشائرية المختلفة في أوائل عشرينات هذا القرن ابان دخول عهد الامارة. فقد تركها الحكم العثماني ناحية مهملة معرضة للغزوات وانعدام الأمن، وفي مثل هذه الظروف لا تتطور علاقات اقتصادية بورجوازية تدخل شعاعا منيرا من ضياء العصر.

وفاقم أعراض الهزال الاقتصادي والسياسي والثقافي ممارسات المعتمد البريطاني كوكس الذي عرف بشراسته وتعسفه. فقد عين هذا المعتمد عام ١٩٢٤ لادارة البلاد بأمر من المندوب السامي البريطاني في القدس وتحت اشرافه. فمارس «رقابة محكمة على جميع أجهزة الادارة، فكان الوزراء ومديرو الدوائر لا يعينون الا بموافقته»[٦] وانتهج كوكس في البلاد سياسة مالية وادارية وتعليمية وتشريعية وزراعية واقتصادية جمدت القوى المنتجة على حالها حتى عقد الخمسينات. وبالنتيجة لم ينشأ فرز اجتماعي ولا تطور التعليم في البلاد الا بقدر بسيط وبصورة تلقائية تحت تأثير اوضاع الأقطار المجاورة. ورغم عدم وجود صراع اجتماعي متأجج فقد مارس كوكس سياسة قمع متواصلة، حيث سن قوانين الدفاع وقانون العقوبات المشتركة وقانون النفي والابعاد وفرض على الموظفين «تجنب كل ما من شأنه أن يفسر بكونه اشتغالاً بالسياسة»[٧].

وفعلا صدرت ارادة أميرية بالموافقة على مشروع قانون لإقامة

حكم نيابي دستوري «غير أن السلطات البريطانية قاومت هذه التدابير والخطوات لأنها تقف حجر عثرة في سبيل هيمنتها على الادارة الفتية»[٨] لم تقم في البلاد مرافق اذاعة أو صحافة وطنية. وقمع بدون رحمة كل نشاط حزبي أو وطني ووضعت عراقيل عدة أمام تشكيل الجمعيات والنوادي.

ورفض المعتمد مطلب الحركة الوطنية عام ١٩٢٩ باقامة حكم نيابي في البلاد متذرعا كما جاء في رده «أن التقدم نحو الحكم النيابي لا يتم الا بعد أن يبرهن الشعب قدرته على تحمل مسؤوليات أكبر».

لقد استهدفت ترتيبات المعتمد البريطاني واجراءاته جعل شرقي الاردن «موطنا للعرب الذين ينزحون عن فلسطين بعد تكاثر اليهود فيها. وقد ذكر ذلك أحد الساسة البريطانيين الذين عملوا في هذه البلاد»[١٠].

ان القمع وكبت الحريات قد حكم على الحركة الثقافية بالهزال. لم تنشأ خلال هذه الفترة تقاليد ثقافية راسخة كالصحافة الحرة والمجلات الفكرية أو المسرح. الا ان شرقي الاردن شهد حركة قومية نشطة ونشاطا ثقافيا.

فقد شهدت الحركة الثقافية والأدبية انتعاشا ملموسا في عقد الثلاثينات وكانت حركة شاهدة على عصرها. اذ لم يصدر خلال النصف الأول من هذا القرن في شرقي الأردن، كما يقول الباحث الدكتور سمير قطامي، سوى اربعة كتب أدبية، وباستثناء الأدب المنشور في الصحف والمجلات ما زال هناك مواد أدبية لم تنشر بعد ولم يفرج عنها حتى الآن. لم يفرج عنها الأدباء في حياتهم ولا ورثتهم «كانوا متحفظين جدا فيما يتعلق بالشعر السياسي. ومما كان يقوله بعضهم إن تلك الفترة قد يمضي عليها الزمن ولا داعي لبحثها الآن»[١١].

«فلا العثور على أوراق الادباء في الغالب متاح... ولمحاولتهم اخفاءه أسباب عدة»[١٢].

وأشار الدكتور الباحث الى «أن الأدب في الأردن في الربع الثاني من القرن العشرين لا يقل في مستواه الفني عن الأدب في سوريا او العراق أو سوريا في الفترة ذاتها. وأن العدد الكبير من الصحف التي صدرت في الأردن خلال تلك الفترة، والتي كان بعضها يعلق او يتوقف في أيامه الاولى لتدل دلالة واضحة على روح التحفز وحماسة العمل السياسي والفكري وحيوية الناس في ذلك العصر»[١٣].

كانت هذه الفترة ثمرة نشاط المؤتمرات الوطنية التي بدأت عام ١٩٢٨ وعبرت عن الهموم القومية والاجتماعية في شرقي الاردن ورفعت المطالب الوطنية. وانعكست الهموم في الأدب. وتمثلت حرارة العاطفة، والصدق الفني في الشعر المناهض للقمع اذ تميز «بتلك الحدة، وذلك العنف في المعالجة وحرارة العاطفة لا ينمق ارضاء للآخرين بل ينطلق من احساس ذاتي ومعاناة حادة. وجد هذا الشعر من خلال الألم والصراع في الحياة. من هنا اكتسبت قيمته»[١٤].

وفي مناخ القمع يزدهر النفاق وتشتد صولة الكذب. وهذا ما دفع عرار الشاعر الاردني أكثر من مرة لإدانة انقلاب القيم وزيف المعايير:

ودع عمان يسكرهـــــا الريـــاء الوقـــح والكـــذب

واهتم الأدب الأردني بالقضية القومية وقضية فلسطين. كانت دعوة «الخليفة» أو «الصديقة التقليدية» كما وردت مرار في وثائق الحركة الوطنية علاوة على الحكومة، عاملا في اخماد الحركة المناهضة للأمبريالية والصهيونية.

عجبا نصادف من ركون شيوخنا حين أطمأنوا للوعـــد وأملوا
الحق يؤخذ بالفياصل عنوة من يرتجيـــه هـــذا يفشل

وقد اخترق عرار بحدسه الفني حجب الزمان وتأمل دبيب الخطر الزاحف:

يا رب إن بلفور أنفذ وعده كم من مسلم يبقـــى وكم نصراني
وكيان مسجد قريتي من ذا الذي يبقي عليه اذا أزيل كياني
وكنسية العذراء أين مكانها سيكون إن بعث اليهود مكاني

فالخطر يهدد الكيان القومي على اختلاف طوائفه. وتوترت الرؤية القومية الوحدوية ازاء الخطر القائم والداهم. فهذا ميثاق المؤتمر الوطني الثالث ينص في مادته الثالثة على «توحيد الجهود في البلاد العربية لدرء الأخطار الاستعمارية والصهيونية وتحقيق المبادىء القومية مع السعي لتعزيز الاتحاد المركزي على قواعد الاتفاق بين حكومات البلدان العربية، على أن يحتفظ كل قطر بخصائصه الداخلية وشكل حكومة خاصة».

وعبر الشعراء عن هذا المطمح، والشعر اسرع الى التدفق من غيره من الاجناس الأدبية. فهذا ابراهيم المبيضين يدعو:

ضوا الشآم الى الشآم وحققوا أمـلا عـلى ايمانـكم يتعلـق
وأمحوا الحدود من الوجود وجددوا عهد الجدود وذا اجل وأليق

وقال عرار:

فدعوا مقال القائلين جهالة هـــــذا عراقيّ وذاك شآمي
فبلادكم بلدي وبعض مصابكم همي وبعـــض همومـــكم آلامي

لقد التحم في شعر عرار وحتى في القصيدة الواحدة الهم الاجتماعي بالهم القومي. اذ ترجم معاناة مرحلة كاملة ورسم قسماتها الثقافية. تميز شعره بالرفض واندمج بعقله ووجدانه مع هموم الجماهير فعكس من خلال مرآته تطلعاتها وأشواقها. هاجم المرابين والمنافقين وكل عناصر الخلل الاجتماعي «كانت محليته علامة الصدق في إنسانيته الأصيلة الطامحة. وقف ضد التقوقع وضيق الأفق، كما كان ضد الاستغلال والنفاق والرياء والخلل الاجتماعي»[١٥].

الا أن شعره تخللته عروق رومانسية فلم يستشرف تفاؤل الخلاص وتلون شعره بالانفعال والسخط والرفض. كان صرخة احتجاج.

ويستحيل ان يكون الامر مع عرار على خلاف ذلك. فرغم صدقه الفني لم يتلمس حوله حركة جماهيرية ثورية. وكان الفكر السياسي في شرقي الاردن في تلك المرحلة دعوة اخلاقية، رأى في الكولونيالية نفيا للأخلاق ومعارضة للطبيعة الاجتماعية البكر المتمثلة في العقد الاجتماعي. والجوهر لا ينكشف الا لفكر جدلي يخوض

معمعان الصراع الاجتماعي ويسبر من خلاله أغوار الحياة الاجتماعية وتناقضاتها الاقتصادية. والذي يتوقف عند الظاهر لا يرى غير القوانين السائدة تسدّ الطريق على المدلجين، فيشعر بالوحشة وتعتريه الرهبة فيرتد الى القنوط واليأس.

رأى الأدب الرومنسي، نثراً وقصصا، اختلال القيم وتقليد الأجانب واستيراد قيمهم وعاداتهم السلوكية فتوقف عند وظيفة الوعظ. ورأى المشاكل الاجتماعية سابحة في فراغ تهوم دون أن تنشدّ لجاذبية، او ترتبط بتركيبية اقتصادية - اجتماعية.

أديب أدرك واجب الأدب في هندسة المستقبل ووعى دور الأدب، وفي لحظة تأزم يقرر هجر الأدب لأنه «لم يستطع القيام برسالة يراها في إصلاح اخطاء الدنيا المجبولة بالأخطاء» غير أنه «لا يدعي لنفسه تلك القدرة.. يريد أن يكون أديباً يهدم كثيرا ليبني كثيرا.. وهو يلوذ بالصمت كي لا يكذب على نفسه وكي لا يتخذ أدبه ألهية ومادة للتفكه عند فئة محترفة».. «فمن منا القادر على أن يقول كلمة في مناوأة الطبقات؟ كثيرون يقولون إنهم على هذا قادرون. اما أنا فلا أحب أن أضيف الى عيب الجبن رذيلة الكذب»(١٦).

انه لم يدرك واجب الاديب وحسب، بل وحدد وظيفة الادب التي تمنحه مبرر الوجود، في هذه المرحلة لتطوير الحياة. فالأديب ان لم يجرح قشرة الحياة بجرأة وصدق تكلس الواقع المشوه الذي يتقوس مع تشوهاته ويتكون مع تقادم الزمن. واذا لم يجرح الأدب الأورام الفاسدة فانه يستحيل الى مخدر وأداة تنفيس يهدىء الآلام على وهم منع استشراء الداء.

لقد استشرف أديبنا الأفق الجديد الذي تجلى باعبائه فانكفأ على نفسه وهرب من جسامه المهمة، وترك لمرحلة تالية مواجهة الأعباء الجسام.

بعد الحرب العالمية الثانية تصدع النظام الكولونيالي وبدأ ينهار وأخذت الأقطار العربية المحيطة تمور بعوامل القوة. وانطلقت الجماهير في الاقطار التي انتزعت استقلالها الى الحياة السياسية والاجتماعية وحدث تحول نوعي في النشاط الثقافي حيث اغتنى بالمضمون الاجتماعي.

في مصر تزعمت الحركة الوطنية لجنة للعمال والطلاب جاء في أحد بياناتها(١٧) «أن جموع الامة عاقدة العزم على تغيير الاوضاع الاجتماعية».

«ان القوانين في معظمها لمصلحة الرأسمالية».

«يجب على الطبقات الشعبية أن تقوم اليوم بالدور الرئيسي في الحركات الوطنية لان الطبقات الحاكمة الحالية تتعاون مع الاستعمار».

ويقول الكاتب: «ومنذ يوم الجلاء الشهير في ٢١ فبراير ١٩٤٦ لم تتوقف المعارك بين أبناء الشعب والقوات البريطانية الا بانسحابها الى القنال عام ١٩٤٧. ثم استؤنفت المظاهرات الشعبية بعد عام سنة ١٩٥٠، لتتطور الى كفاح مسلح في منطقة القنال في أواخر سنة ١٩٥١ وأوائل سنة ١٩٥٢.

ويتجلى هذا التحول النوعي في مضمون الشعر وشكله. فالجواهري يؤبن الشهيد الوطني فيقدم صورة نموذجية للواقع الاجتماعي وحلا لمشاكله.

بك بعد محتدم النضال سينجلي ... فيما ابتدأت من النضال ختام
سيجاز شهر بالعناء وآخر ... ويخاض عام بالدماء وعام
ستطير في أفق الكفاح سواعد ... وتطيح في سوح الكرامة هام
اذ ذاك يصبح بعد طول متاهة ... بيد الشعوب مقادة وزمام

وملامح أخرى من الصورة:

شعب يجاع وتستدر ضروعه ... ولقد تمار لتحلب الأعنام
وتعطل الدستور عن أحكامه ... من فرط ما ألوى به الحكام
فالوعي بغي والتحرّر سبة ... والهمس جرم والكلام حرام
ومدافع عما يدين مخرب ... ومطالب بحقوقه هدّام
ومشى بأصلاب الجموع تهزها ... الجهل والادقاع والأسقام
وتصافقت حجر على متحرر ... ومفكر فتحطمت أقلام
رد البكاء عليك انك قائد ... ولو استبد بك الثرى وامام

لعل الثورية الصادقة في الادب الواقعي تتوهج من عمق تغلغله في واقع الحياة الاجتماعية وتناقضاتها، واقراره بدور الجماهير المحول للتاريخ والصانع للتحرر والتقدم الاجتماعي. انه الأدب الملتزم بقضية ثورة التحرر الوطني بمدلوليها القومي والاجتماعي وصولا للتغيير الثوري حيث يلتزم الادب الواقعي بمعرفة الواقع الاجتماعي وتحديد ملامحه الرئيسية وتشخيص حاجات الناس وتطلعاتها. فالادب المرتبط بالطبقات الناهضة تعبير عن المصالح الاجتماعية، ويحتفظ بقيمة معرفية كبيرة بينما فن الطبقات الهرمة يبتعد عن الحياة ويفقد قيمته المعرفية. والفنان الحقيقي يكشف في صوره الفنية حياة مجتمعه ويرسم شخصيات الناس في عصره ومن خلال الصور الفردية يعبر عما هو نموذجي عام مما يرفع القيمة الاجتماعية لفنه، وقد تميز كبار الفنانين في عصورهم بما ابدعوه من صور نموذجية للعصر الذي عاشوا فيه فعكسوا بعض السمات الانسانية العامة في شكل فني رائع. فمحتوى كل فن هو الحياة المنعكسة فيه.

شواخص ثقافية

عبر تفاعل الثقافة مع حركة التحرر القومي برزت مؤشرات اساسية في عالم الثقافة.

أولا: ان العقل الذي يحل مشاكل التقدم ويبدد حلكة العصور القديمة والوسطى، انما هو العقل الديالكتيكي وليس العقل المجرد. انه العقل الذي يناول المجتمع وحدة كاملة لظاهراته تتبادل فيما بينها المشروطية السببية. فجميع ظاهرات المجتمع ترتبط ضمن علاقات تفاعل وتنهض على ظاهرة أساسية وتتفاعل معها هي أسلوب الانتاج المادي.

ثانياً: وبناء عليه فالثقافة بعناصرها المعرفية والاخلاقية تشكل ظاهرة اجتماعية تتولد من أساس مادي وتؤدي وظيفة اجتماعية في خدمة هذا الأساس بين علاقات الانتاج وأسلوب الانتاج الذي تنهض عليه الحياة الاجتماعية. ويستحيل والحالة هذه تربية القيم او المثل او المعايير السلوكية في مزهريات أو داخل غرف زجاجية أو

بلاستيكية. ويتناول كل مجتمع من انجازات الثقافة العالمية أو من قيم التراث ما تفرزه الحاجات الاجتماعية او المصالح الناشئة. وكل فكرة تسقط اجتماعيا اذا لم تعبر عن مصلحة. والنظرات الانتقائية أو التجريبية لا تحتضنها الحياة.

ثالثاً: ان الايديولوجيات كتعبير فكري عن المصالح تجد هوى لدى الفئات والطبقات اذا ما تطابقت مع خبراتها الناتجة عن الممارسة الاجتماعية اذ توضع الممارسة اليومية والتفاعل مع نمط المعيشة النفسية الاجتماعية بصورة عفوية تلقائية فتهيئها لاستقبال النظرات الفكرية الايديولوجية الفلسفية المطابقة لها.

وفي الوقت الراهن تلعب أجهزة الاتصالات الدولية وتكنولوجيتها المتقدمة دورا في تشكيل خبرات الانسان اليومية، وبما يثبته من انتاج ثقافي واعلامي تسهم في صياغة النفسية الاجتماعية.

رابعاً: في بداية نشوء حركة التحرر القومي تتسلم قيادتها عناصر من أبناء الطبقات والفئات المتنفذة، وذلك اولا بحكم قوة استمرار عادة التعلّق بالأسياد. وثانيا لان منتجي الثقافة او وسائط نقلها هم من الافراد الذين أتيحت لهم فرص تلقي العلوم، وهذه لا تتوفر الا لأبناء الاسر الميسورة. ويبرز من بين هؤلاء من ترشده نفسيته، او نفاذ بصيرته او معاناته لتبني مصالح الجماهير والالتزام بقضيتها، ومع تتالي السنين ينشأ من بين الجماهير مثقفوها وأدباؤها وفنانوها.

خامساً: ان تعارض المصالح بحكم تعارض المواقع على طرفي علاقات الانتاج يفترض ويحكم قيام أكثر من ثقافة داخل المجتمع الواحد. والثقافة المسيطرة تعبر عن مصالح الطبقات السائدة ضمن علاقات الانتاج الاساسية والسائدة سياسيا بالنتيجة، فهي توظف مؤسسات التعليم وأجهزة الثقافة ووسائل الاتصال التي بحوزتها لصياغة ثقافتها ونشرها وتنميتها.

وفي كل مجتمع ينقسم المثقفون الى فئات ثلاث: مثقفون يمسكون زمام الأجهزة الادارية المدنية والعسكرية، ويتم انتقاؤهم بعد اختيارات من بين الموالين للسلطة ويتدرجون في سلم المسؤوليات حسبما يبدون من موالاة، ومثقفون منتجون للثقافة من أدباء وعلماء وباحثين تروج السلطة لمنتجي نظراتها وقيمها من بينهم وتعمل على اشعارهم بكل الوسائل، ومثقفون يعملون في الانتاج المادي وأغلبيتهم يعانون الاستغلال ويقفون في صف العمال والشغيلة.

ويتعمق الفرز بين المثقفين بعد قيام السلطة القومية وتكوين الأجهزة والمؤسسات حيث تتولى مؤسسات التعليم مهمة اعادة انتاج علاقات الانتاج، أي أنها تعد الكوادر اللازمة لشتى قطاعات النشاط الانتاجي - الثقافي وتهيئتها علميا ونفسيا بحيث تتقبل النظام الاجتماعي كحالة طبيعية وأمر عادي.

٣ - الثقافة والصراع الثقافي في ظل الكولونيالية الجديدة

الثقافة والادب والاعلام في معركة التنمية الوطنية

للصراع الثقافي دور كبير في الصراع العالمي الراهن وعلى الصعيد المحلي. وهو جزء من الصراع الايديولوجي بين قوى السلم والتقدم وقوى الحرب والرجعية. فبعد أن حطمت الشعوب النظام الكولونيالي سعت القوى الامبريالية لتعويض الخسارة بتأثير انتهاجها الثقافي - الاعلامي وتوجيه الشعوب حديثة الاستقلال في طريق التنمية الاجتماعية التي توثق روابطها الاقتصادية وبالتالي السياسية والثقافية مع الامبريالية ومؤسساتها. هذا دون أن تسقط بطبيعة الحال مشاريع العدوان العسكري المباشر.

فالاعلام والثقافة، اذ يرتبطان بالمصالح، فان العلاقات الثقافية والاعلامية تعكس طابع العلاقات الاقتصادية وتعمل في خدمتها. ووظيفتها الاجتماعية في هذا المجال تنطلق من النظرات الايديولوجية للبرجوازية الامبريالية لتؤثر في العقول والنفوس وتسهم في بناء الثقافات الاجتماعية الموجهة لارادات الشعوب عن طريق صياغة مواقفها ومثلها وقيمها. وسواء كان المنتج الثقافي ادبا او فنا او مواد اعلامية (اخباراً وتعليقات وتقارير وصورا لاسلكية او متلفزة) فانها توجه بصور واشكال تفعل في النفسية الاجتماعية وتنقل معلومات ومعارف متنوعة، اذ تستهدف الابلاغ او الاقناع او اثارة الانفعالات. فالاعلام البرجوازي، تحريضاً او حرباً نفسية، لا يتعامل مع الخبر المجرد ولا تعنيه الحقيقة المجردة.

اما الاعلام الموضوعي، الاعلام الذي يعنى بنشر الحقيقة والتفتيش عنها، فانه يتطابق مع المصالح المنسجمة مع التقدم ومع سيطرة الشعوب على بيئتها الطبيعية والاجتماعية وتطويرها لصالح احداث التحولات التقدمية الاجتماعية في حياتها وتوطيد استقلالها الوطني وضمان امنها وتطورها المستقل.

جبل الاعلام البرجوازي

أولا: يطرح الإعلام البرجوازي على أنه إعلام حر لمجتمع مفتوح. وهو يقسم النشاطات الاعلامية بين موجه بأمر السلطة واعلام مستقل عن السلطة، ويطرح السلطة، أي سلطة، في معارضة مع حرية الاعلام. فما هو مدى نصيب هذه المقولة من الصحة؟ ذلك يتبين من الوقائع التالية:

١ - يقبع في الارشيفات السرية لدول الغرب وثائق عديدة يؤجل نشرها لفترة تمتد بين ربع قرن وقرن كامل. وبات هذا تقليدا دارجا في الديبلوماسية الغربية. ولا شك أن الإفراج عن الوثائق يثبت طابع الكذب والتزييف في تبرير الوقائع والاحداث التي اخفيت في حينه الوثائق المتعلقة بها.

٢ - ان ارتفاع كلفة الانتخابات وخاصة في الولايات المتحدة يجعل من المتعذر وصول ممثلي الجماهير الكادحة الى الهيئات التشريعية والمناصب المنتخبة المقررة فتحتكر هذه الطبقات الثرية التي تغدق الاموال على عملائها المرشحين. وهؤلاء يشكلون بتصريحاتهم وتقاريرهم وانتقاداتهم المصدر الرئيسي للاعلام البرجوازي ويساهمون في طمس الحقائق او تشويهها او عرضها متناقضة مربكة.

فالصحافة الاميركية مثلا، لا تستطيع تجاهل ارتفاع نفقات الحملات الانتخابية. واشارت مجلة نيوزويك (١ نوفمبر ١٩٨٢) إلى أن كلفة انتخابات الرئاسة الاميركية الاخيرة بلغت ٢٥٠ مليون دولار. ومن احد امثلتها ان المرشح لمنصب حاكم ولاية ماساشوستس،

دوكاكيس، انفق ٧٥٠ الف دولار خلال دعايته التلفزيونية فقط. اما كيوكهرمان فقد انفق ٨,٣ مليون دولار من ثروته من اصل ١١ مليون دولار كانت تكاليف حملته للفوز بمنصب حاكم ولاية نيويورك. وكلف منصب مجلس الشيوخ عن ولاية نيوجيرسي مبلغ ثلاثة ملايين دولار.

وتقول المجلة ان السياسة غدت نوعا من البيزنيس، شأن غيرها من المهن. وتأخر دور الاحزاب في الدعاية الانتخابية ليحتله اختصاصيون يتولون مهمات ادارة الحملة والدعاية بالتلفزيون وايصال البطاقات البريدية الى جانب المحامين والمحاسبين وماسكي الدفاتر. وتشكلت ايضا لجان عمل سياسي تعمل واسطة بين الاحتكارات والمرشحين تمر من خلال قنواتها الاموال لدعم المرشحين وشرائهم سلفا ليمثلوا الاحتكارات في مراكزهم الجديدة.

٣ - ان تعقد الادارات وازدياد عدد الاختصاصيين يقلص دور الهيئات المنتخبة في تقرير القضايا الاساسية المحلية والدولية فيفوّض التقرير فيها لجهات اختصاص تجري دراساتها ومناقشاتها وتتخذ قراراتها خلف ابواب موصدة وتتحكم في تسريب المعلومات والاخبار مع ابقاء الحقائق الجوهرية التي تدور حولها الحياة الاجتماعية في الاقطار البرجوازية طي الكتمان.

٤ - ولدوائر الاستخبارات ما تخفيه من الحقائق وما «تفبركه» من مواد الاعلام التي تروج توطئة لتدابير واجراءات ديبلوماسية او عسكرية.

ان وكالة المخابرات المركزية الاميركية مطبخ للاكاذيب والافتراءات واعمال التزوير. وهي تقف خلف نسبة عالية من الانتاج الثقافي والاعلامي للغرب كافة. فهي تتولى «زراعة محرّرٍ موالٍ لاميركا في صحيفة اجنبية[١٨] واضطر رئيسها الاسبق ريتشارد هيلمز للامتناع عن تفنيد شهادة كاذبة امام الكونغرس بصدد مؤامرتها التي اطاحت بالحكومة الديمقراطية في تشيلي. و«بعد الحرب العالمية الثانية ساعدت سي آي ايه الديموقراطيات الاوروبية على تقليص نفوذ الشيوعيين عن طريق تمويل الاشتراكيين والاشتراكيين الديموقراطيين والمسيحيين الديمقراطيين واتحادات العمال. وحتى منتصف عقد السبعينات نفذت سي آي ايه آلاف البرامج معظمها ذو تكاليف منخفضة وعمليات اعلامية ودعائية ولكنها لم تتردد في تنفيذ مؤامرات انقلابية وتشكيل جيوش خاصة[١٩].. وحتى لا تعطي المجلة انطباعا بأنها لا تؤيد هذه الممارسات تقول الصحيفة ولكن العمليات الناجحة حقا هي العمليات التي ما زالت حتى الآن طي الكتمان» وتتذمر من «ان النشاطات السرية تتكشف للضوء على الدوام... ففي التقارير الصحفية من اقصى البلدان تتوزع الى ابعد قرية او تتسرب على ألسنة النقاد في الكونغرس او الادارة او وكالات الاستخبارات انفسها. ويعرف المحررون أن الحكاية ستنشر اذا لم ينشروها فسينشرها منافسوهم. وحتى في ايامنا تقمع الحكاية اذا ما ارتؤى في نشرها خطر يهدد الارواح او افشاء لسر يتسم بأهمية حيوية بالنسبة للمصلحة الاميركية.. علاوة على ان بعض المراسلين يؤكدون انهم سيحولون دون نشر قصة اذا كان النشاط السري المتضمن فيها يبدو لهم ضروريا وحكيما واخلاقيا.. (طبعا من وجهة نظر المصالح الاميركية!) وفي مجتمع سلعي يتم مقايضة قصة مفبركة أو وأد خبر مقابل الدفع نقدا.

ان هذا يفتح الطريق لمعرفة من يملك الديموقراطية البرجوازية وبضمنها الاعلام والصحافة.

٥ - ان وسائل الاعلام المتنفذة في الغرب ومنها الصحافة وشبكات التلفزيون والاذاعة ودور النشر مؤسسات مالية احتكارية متفرعة عن الرأسمال المالي، كما في ايطاليا وبريطانيا او هي احتكارات مستقلة. وفي كلتا الحالتين تشارك الطغمة المالية مصالحها ورؤيتها الاجتماعية وتوجهاتها. تملك الولايات المتحدة أكبر عشر مؤسسات اعلامية تتولى الحكم على اي خبر، قد تطويه في النسيان او قد تعممه على اجزاء الكرة الارضية خلال ثوان. وتتحكم وكالات الانباء اسوشيتدبرس ويونيتدبرس وفرانس برس وروبتر في نشر وترويج اكثر من تسعين بالمئة من الأخبار والتقارير الصحفية والتعليقات والصور التي تدخل في مواد نسبة عالية من الصحف والنشرات الاخبارية في بلدان العالم الرأسمالي.

وعندما انعقد مؤتمر الامم المتحدة بشأن القضية الفلسطينية في جنيف لم يتمكن التلفزيون الاردني من بث لقطات عن المؤتمر لأنها كانت تصله غير واضحة عكس بقية الاخبار المصورة التي وصلت واضحة وأمكن نشرها.

اما ان هذه الاجهزة تذيع وتبث بعض اللقطات السلبية عن البرجوازية فهو من احدى حيل الاعلام البرجوازي التي سنأتي عليها فيما بعد.

٦ - يعمل اتجاه في السياسة البرجوازية في الغرب نحو الحد من الحريات الديموقراطية التي انتزعت بنضالات شاقة خاضتها الجماهير الشعبية ولم تمنن، بها او تهبها البرجوازية. فالتغير من الديموقراطية الى الرجعية السياسية في المجالين الدولي والداخلي سمة اساسية في الديموقراطية البرجوازية تتمثل في تشجيع نشاط المنظمات الفاشية وذيول دور المؤسسات التشريعية واخضاع قراراتها للاغلبية المتمثلة لتوجيهات هيئات الاختصاص وفي سن تصريحات صريحة تحد من الحريات الديموقراطية وحق النشر.

في الولايات المتحدة اقر مؤخرا قانون لحماية نشاط وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية ويحظر نشر اسرارها علاوة على المراقبة الذاتية التي يلتزم بها المحررون والمراسلون. في الولايات المتحدة حطم اضراب عمال المراقبة الجوية وحلت نقابتهم وسيق قادتهم الى المحاكم بأمر من الرئيس ريغان بموجب قانون خاص يحرم على عمال المؤسسات الحكومية الاضراب. وقد تخلى عنهم اتحاد العمل الاميركي والاعلام الاميركي في نفس الوقت الذي هاجت غضبته انتصارا لعمال بولونيا.

واقر الكونغرس الاميركي مؤخرا قانونا يضع تحت طائلة العقاب كل موظف يسرب معلومات تتعلق بعمله اثناء الخدمة او بعد ترك الخدمة.

هذه العوامل والاتجاهات بعض من الظواهر السياسية التي تجعل من حكاية المجتمع المفتوح والحرية الاعلامية لدى الغرب زيفا وخداعا موظفا لإضفاء مسحة الصدق والموضوعية على مضامين الاعلام البرجوازي.

حتى لو اختفت كل هذه المظاهر فان وجود الرأسمال وحده كفيل بإفساد الإعلام والثقافة. فالرأسمال عامل افساد وتخريب للذمم والضمائر وهو يشتري ويضغط ويقيم الدعاوى ويسبب ما لا حصر له من الازعاجات والمضايقات المادية والمعنوية للصحفيين الذين لا يمتثلون لاوامره.

ثانيا: ومن خدع الإعلام البرجوازي استقاء الاخبار من الاجهزة الرسمية وتصريحات المسؤولين. فالعالم يعرف أكذوبة الرئيس الاميركي الاسبق، جونسون، التي برر بها تصعيد الهجوم على فيتنام وكيف افتضح أمرها. والعالم، والعالم العربي خاصة، يذكر اكذوبة الاستخبارات المركزية الاميركية يوم نشرت تقريرا حول قرب نضوب النفط السوفييتي واستنتاجها أنه يبيت عدوانا على منابع النفط في الخليج. فقد تزامنت الاكذوبة مع مخططات شرعت الادارة الاميركية باعدادها للتدخل في المنطقة وتشكيل قوات التدخل السريع وتشكيل الاحلاف العسكرية واقامة التسهيلات في المنطقة.

وتعد الولايات المتحدة خطة العدوان المسلح ضد نيكاراغوا واسقاط نظامها التقدمي ايضا بناء على تقارير وكالة المخابرات المركزية الاميركية الزاعمة بأن نيكاراغوا تدعم ثورة السيلفادور وتصدر الثورات في منطقة أميركا الوسطى.

ونشرت صحيفة الاوبزيرفر[٢٠] ما اعتبرته «مجموعة من الوثائق المصنفة حصلت عليها الأوبزيرفر تفضح حقيقة التفسيرات الرسمية لنشر الصواريخ الاميركية كروز وبيرشينغ - ٢ - وكيف تغيرت بصورة درامية منذ ان اتخذ القرار بنشرها عام ١٩٧٨».

وتقول الصحيفة «عمل المسؤولون الاميركيون بجد للاعداد لبقاء (لقاء لرؤساء حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الغربية وفرنسا عام ١٩٧٨) وصياغة رأي عام معاد. وبصورة اساسية تبنوا وجهة نظر تدعو لبذل كل جهد ممكن لتوفير النقاش العام على نطاق واسع «عن طريق تسريب معلومات منسقة بعناية».

«وبصورة خاصة تكشف هذه الوثائق كيف اعد الاميركيون حملة ضخمة من العلاقات العامة تفضح بلدان حلف الاطلسي بكيفية نشر المعلومات المختارة حول القوات النووية الميدانية» وفي حزيران ١٩٧٩ وضعت الخطط لتسريب معلومات منتقاة الى (محولات ضخمة) بحكم مواقعها مثل الصحفيين والاكاديميين والسياسيين الذين يستخدمون المعلومات في توجيه أي نقاش ينشأ مع تجنب اثارة مواد مضادة ومهيجة.... فقد تنبأ الاميركيون بحق بنهوض حركة السلام واملوا تجنب الاحتجاجات الواسعة التي استقبلت الاعلان عن القنبلة النيوترونية... اعتقدوا آنذاك ان المبالغة في التركيز على الحشد العسكري السوفييتي عن طريق نشر المعلومات التي توقف شعر الرأس انما هو تكتيك خاطىء...»

في ذلك الحين كان الجمهور يتناول الصحيفة ويتحول الى قناة تلفزيونية أو محطة اذاعية، فيجد اما تقريرا صحفيا او حديثا باسم لجنة او ندوة، او مؤتمرا صحفيا او.... الخ كلها لتشيع جوا من القلق بشأن عدوان سوفييتي مزعوم واتجاهات توسع ملفقة تبرز الدوافع «لتحديث سلاح الاطلسي التي اتخذت عام ١٩٧٩» وهي دوافع «تخالف وجهة النظر المعلنة حاليا في لندن وواشنطن» كما تؤكد صحيفة الاوبزيرفر.

ومؤخرا منح الرئيس الاميركي ريغان جائزة الكذب اشادة بجرأته في اصدار تصريحات متناقضة وافتراءات مدسوسة.

ثالثا: وشأن كل وسيلة اعلام ينتقي الاعلام الغربي من بين اطنان الاخبار اليومية ما يروق له نشره والتركيز عليه. وهو ينقل عن بلدان العالم الثالث، على سبيل المثال، ما يؤيد النظرة الامبريالية ازاء دول هذه المنطقة. وقد اشتكت دول عدم الانحياز في مؤتمراتها وفي مؤتمرات اليونسكو من تحيز الاعلام الغربي وطالبت بكسر احتكار الغرب للإعلام وانشاء نظام اعلامي دولي جديد.

ان وقائع الحياة اليومية واحداثها قد تأتي متناقضة، الا ان هناك اتجاها رئيسيا للاحداث الدولية ينبغي على كل اعلام موضوعي مراعاته في ترتيب الأخبار وتقدير اهميتها.

رابعا: ويعمد الاعلام الغربي الى التركيز والتكثيف على الحدث الذي يخدم وجهة النظر البرجوازية بينما تقلل من قيمة الاخبار الاخرى. واذا اضطر لنشر خبر سلبي لا يكرره ولا يعود اليه، ولكنه يكرر العودة للخبر الملائم شهورا وسنوات وربما عقودا عديدة. اجهزة الاعلام كمجلة التايم الاميركية تشكو بنفاق ان الرأي العام بدأ ينسى الغزو الاسرائيلي للبنان.

ان الاعلام الغربي ينطلق من فرضية تزعم ان الشعوب بلا ذاكرة ويمكن غسل الادمغة بواسطة التركيز والتكثيف وتجاهل أخبار معينة.

خامسا: وينطلق الاعلام الغربي من المقولات الفلسفية البرجوازية، وخاصة البرغماتية، فكل اجراء جيدٌ اذا ما حقق منفعة بغضّ النظر عن وحشيته او مجافاته للقوانين الدولية. ان غزو غرينادا عملية ناجحة لانها حققت انتصارا سريعا فجيّر لصالح ادارة ريغان، بدلا من التنديد بها باعتبارها تدخلا وقحا في الشؤون الداخلية لشعب صغير. وشجع هذا التقدير ادارة ريغان على المضي قدما في اعداد الخطط للعدوان على نيكاراغوا.

سادسا: ويبادر الاعلام الغربي لنشر الاخبار السلبية مثل الفضائح بعد ان تتسرب لا محالة وتغدو من غير المفيد التستر عليها. ولكن بالاعلان عنها انما يشوه الحقيقة وينشرها ناقصة محرفة ومخففة. والانطباع الاول يكون دائما هو الأوقع في النفس والاطول بقاء في الذاكرة.

نشرت الصحافة الاميركية ان باري غولدووتر عضو الكونغرس عضو كذلك في عصابات المافيا الاميركية - الاجرام المنظم - وانتهت القضية عند هذا الحد واغلق الملف.

ونشرت الصحف والاعلام عن فضيحة الاعمال السرية لوكالة

المخابرات المركزية الاميركية وشكلت على الاثر هيئة بأمر من الرئيس الاميركي فورد ثم انتهى الامر بوضع قوانين تحظر على عملاء الوكالة او الصحفيين نشر معلومات عن العمليات السرية القذرة للوكالة.

ونشر الاعلام تقارير تدحض وتكذب نتائج التحقيق في اغتيال الرئيس الاميركي الاسبق كينيدي وتؤكد بأدلة قاطعة انه سقط نتيجة مؤامرة ثم طوي الامر.

ينطلق الاعلام البرجوازي من مواقف ايديولوجية ازاء قضايا الاشتراكية والسلم والتحرر الوطني وتطور الاقطار النامية. فهو ملتزم طوال اربع وعشرين ساعة كل يوم بهذه المواقف في نشراته الاخبارية وتعليقاته وريبورتاجاته وتقاريره الصحفية ويدأب باستمرار على اداء رسالته الاعلامية في تشويه هذه القضايا والافتراء عليها وتسقّط نواقصها وشن حرب نفسية على أنصارها. ولا يمكن للاعلام الا ان يكون متحيزا لقضية ومعادياً لقضية. اما الحقيقة فانها تبرز كقمة الجبل الثلجي في المحيط الشاسع من الاكاذيب والافتراءات والاختلافات التي تصدر عن مطابخ الدعاية والاعلام البرجوازية.

الانتاج الثقافي

وشأن الاعلام يسخّر الانتاج الثقافي للبرجوازية لخدمة رسالة البرجوازية وتعزيز نظراتها الى الحياة والانسان والى شعوب العالم. انه يسخر من طموحات الانسان الى التقدم والسلم ويجزم بتشوه الانسان وفساد طبيعته الاصلية ويروج لسيادة القوة والفهلوة والاغتصاب ويمنح الحصانة لممارسات الاجرام وشق المشاكل الاجتماعية باعتبارها قدرا على البشرية لا سبيل الى الفكاك منه، فالثقافة البرجوازية تعكس رأي البرجوازية وانغلاق آفاقها بل وتحلّلها كطبقة لا تحمل أفقا تقدميا وتقف ضد التقدم.

تارة تدعو للعودة الى البدائية والهمجية وتشيع النفسية الفردية والاستهلاكية وتارة تجد الملاذ في الجنس والمخدر والنشوة. وفي أفلام الخيال العلمي تتعمد الافلام الاميركية على وجه الخصوص الاشادة بالسوبرمان الذي تتجسد فيه خصائص الامبريالية الاميركية من قوة وذكاء فتمنحه حق الهيمنة ونشر جبروته حيثما توجه أو جال.

فالبطل روكي، ذلك الملاكم الذي غرق في مباهج الحياة وبذخها ينهزم امام ملاكم اسود يمثل البدائية والهمجية فيضطر ذلك البطل للعودة الى «اصوله» كي يستقي قوته من جديد ويهزم خصمه الاسود. انه (روكي - ٣) فيلم مرحلة الكساد الاقتصادي والبطالة المنتشرة. فالبذخ مكمن الخطر امام (البدائية) المتحفزة للانقضاض. ولا سبيل الا التحدي برعاية العلم الاميركي لتصفية الخصوم. انه ايضا فيلم التحضير للحرب وسباق التسلح.

وفي موجة الافلام الفيتنامية قلبت الصورة العدوانية للغزاة الاميركيين وتم تبديل المواقف بين القاتل والضحية. وفي هذه الافلام والافلام البوليسية توظف منتجات التكنولوجيا وتستخدم كل امكانيات التقنية الرفيعة من اتقان الادوار ودقة التصوير وجودة الحبكة وغير ذلك من عناصر التشويق والاثارة من اجل تهريب مضمون فاسد ويجري ايراد الاحداث والظواهر ضمن دلالات وتقييمات ايحائية، بحيث تثير التعاطف مع القاتل والمجرم ومع القوة العدوانية.

تلك هي رسالة الفن المعرفية والتقيمية.

وتتلقف دور السينما واجهزة التلفزيون في العالم العربي تلك المنتجات المسمومة وتبثها على الجماهير العربية لتسهم في تشويه الاذواق وتخريب الوعي وتضليله، ولنشر قيم البرجوازية التي تجعل من الفرد حيوانا بهيميا معاديا للآخرين يمضي حياته مطاردا للكسب والمنفعة الذاتية لا يتورع عن وسيلة في سبيل تحقيق غايته.

وفي المجتمعات النامية، حيث لم تتكرس عادة الاستغراق في العمل والمثابرة على البحث الدؤوب خلف الحقيقة. وحيث الانتاج الصغير المسيطر يشجع على مشاريع الكسب السريع بأقل قدر من الجهد، وحيث القوانين لم تتعزز سوطتها ضد اشكال الفساد والاستحواذ غير المشروع فان المؤسسات وانماط الحياة وما تولده من ممارسات وقيم تنشدّ كلها لمنتجات الثقافة البرجوازية وتمنحها المشروعية الاجتماعية وتتفاعل معها في السر والعلن.

طبيعي ان الافلام والفنون عامة لا تشكل سوى بعض اشكال الوعي، رغم انها اكثرها اكتنازا بعناصر الثقافة وأقدرها على التأثير في العقل والوجدان. وهي مع الاعلام تشكل مصادر التأثير اليومي للايديولوجية على العقل والوجدان. انها وسائل ايديولوجية فاعلة ومؤثرة في صياغة الثقافة الاجتماعية للشعوب وتوجيه مواقفها بل وتحديد قضاياها.

ذلك ان الثقافة تضم عناصر المعرفة والقيم ووضع الاهداف

الثقافة والاعلام البرجوازيين في الاقطار النامية، انها تسعى حثيثة لتغريب الانسان عن واقعه وعن قضاياه الحقيقة، قضايا التقدم الاجتماعي.

في هذا الميدان تنزل الثقافة الوطنية تكافح الثقافة الرجعية للامبريالية وترد غائلتها عن الجماهير.

ثقافة التقدم الاجتماعي

في جميع الاقطار التي انتزعت استقلالها السياسي تبرز قضية التنمية. وفي العالم العربي تتصدر قضية التنمية الاجتماعية، المادية والروحية المهمات الوطنية العاجلة الى جانب صد المكائد الامبريالية وتصفية الاحتلال الاسرائيلي ومساعدة الشعب الفلسطيني على استعادة حقوقه الوطنية. وهي مهمات ملتحمة مع بعضها البعض ويتوقف انجازها على الدور الذي تلعبه الجماهير الشعبية في حياتها الاجتماعية. فالعجز الوطني او القومي انما هو عجز الانسان وضعف طاقته الروحية وامكانياته المادية. واذا عجز العالم العربي امام الغزو الاسرائيلي وممارساته العدوانية فان العجز كامن في الانسان العربي وفشل للثقافة التي توجهه.

فالثقافة تترجم في نهاية الامر الى سلوك ومواقف. والمواقف الفاشلة انعكاس لثقافة فاشلة، فاشلة في حشد طاقات الجماهير وتعبئتها وتحفيز قدراتها للدفاع عن الكرامة والسيادة الوطنيين ولتحقيق القدرة المادية الكفيلة بارهاب الخصوم ووقف تعدياتهم.

فأي تنمية وطنية تنجزها الاقطار النامية؟ هل تنمية التخلف ام تنمية التقدم؟ هل هي تنمية النماذج المتخلفة في الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والثقافة ام تنمية نماذج متقدمة في هذه الحقول؟ هنا يكمن الجواب لكل من يود مراجعة عوامل الضعف العربي والعجز بوجه التحديات.

تتجسد قضية التنمية في مواقف سياسية واقتصادية وثقافية.. مواقف متشابكة في نسج عضوي اجتماعي واحد. فالظواهر الاجتماعية تتشابك في نسيج اجتماعي واحد وهي مشروطة. وتطوير الاقتصاد يتم جنبا لجنب وبالتفاعل مع تطوير الثقافة.

وتطوير الاقتصاد يتم جنباً إلى جنب وبالتفاعل مع تطوير الثقافة.

وعلوم الطبيعة تساعد في تطوير الانتاج وتوسيع سيطرة الانسان على البيئة الطبيعية من أجل رفع مستوى القوى المنتجة للعمل الاجتماعي. اما تحسين ادوات العمل فينمي بصورة موازية معه معارف المنتجين وثقافتهم كما انه في نفس الوقت يرسخ عادة الادراك الموضوعي لخواص العناصر المدخلة في الانتاج، عادة الفهم المادي العلمي للمواضيع والتفكير العقلاني الموضوعي. علاوة على ان الصناعة الآلية تفرض عادات الاستغراق في العمل والانتظام وتقييم العمل المنتج وتربط المصلحة الذاتية للمنتج بالمصلحة الوطنية العليا وتخلق انسجاماً صحياً بين مصالح الفرد ومصالح المجموع فتنحل الانتماءات العشائرية والطائفية والاقليمية لصالح الانتماءات الوطنية والقومية والانسانية. ان الثقافة انتماء وارتباط مصلحة.

فالتنمية الاقتصادية تتواكب وتتفاعل مع التنمية وكلاهما يشكلان ساقي التنمية الاجتماعية التي تتقدم بواسطتهما في دروب التطور الاجتماعي.

والتنمية على الصعيد الداخلي تستتبع سياسة دولية للتعاون والتحالف تسهل اهداف التنمية وتدخل البلدان النامية في علاقات محتمة مع الدول والمنظمات الدولية والاجنبية. ان التطور العالمي الراهن قد ربط العالم ضمن علاقات تحالف وصراع، علاقات سياسية واقتصادية وثقافية لا يمكن التهرب منها او تجاهلها او ايقاف مفعولها.

والثقافة التقدمية لا تستطيع سوى الاهتمام بكل هذه القضايا المرتبطة بقضية التنمية التقدمية. وهذا الميدان الرحب هو ميدان الادب التقدمي، الادب الذي ينقل المعرفة العلمية الضرورية لنشاط الناس العملي الاجتماعي التاريخي ويكشف القوانين الموضوعية للظواهر ويرتبط بنشاط الانسان المحول للبيئة الطبيعية والاجتماعية.. فالادب وكل اجناس الفنون يفقد جوهره اذا انفصل عن حياة الناس المادية، وعندما يستسلم الكاتب للكذب، كما قال بيلينسكي، فلا بد ان يهجره عقله وموهبته.

ما تقدم لا يعني ان الادب يتحول الى اطروحة علمية او بحث اقتصادي اجتماعي. ولكنه يعني، بل يحتم على الاديب الالمام بواقعه والتعمق فيه والنفاذ الى جوهر القضايا الاجتماعية التي يتناولها ويتغلغل في نفسية الانسان لان هذا مصدر ابداعه الفني الذي يتمثل في صور فنية ولغة فنية ونموذج فني يجسد السمات الجوهرية لانسان العصر او طبقته او للشعب بأجمعه. وبقدر تعمق الاديب في واقعه وبمدى شمول ثقافته يأتي ابداعه الادبي اغنى فينا من حيث الشكل والمضمون، ذلك ان الشكل والمضمون الفنيين في الادب يعكسان الواقع.

وتشمل الوظيفة المعرفية للواقع ادراك الرابطة العضوية للواقع الاجتماعي بالعمليات الثورية العالمية واصطفاف القوى العالمية ازاء قضايا الناس والشعوب من اجل تزويد الناس والجماهير بسلاح فكري ثقافي في معركة الثقافة التي تدور على الصعيد العالمي وتشمل كافة قضايا الصراعات في العالم.

وتتسلح الواقعية الادبية بنظرات ينبغي أن تكون تفصيلية عن الظواهر الاجتماعية المحلية والكونية وتسترشد برؤية واضحة ازاء الكون في تقييمها للظواهر والاحداث وتحكم عليها وعلى المواقف منها من خلال عملية الابداع الجمالي.

وفي هذا المنحى، يستوعب الادب التقاليد الديمقراطية والانسانية والعقلانية للتراث القومي ويغتني بخبرات الثقافة التقدمية المعاصرة ومنجزاتها. فلا ينعزل عن تحرك ولا ينغلق على ثقافة انسانية او يفوت نمار تجربة الانسان في موقع جغرافي آخر.

والى جانب الرسالة المعرفية يعكس الادب الواقع من خلال تقييمه والرسالة التقييمية تأخذ في اعتبارها حاجات الجماهير ومصالحها والموقف من شروط الحياة وتحدد مثل الانسان واذواقه ومشاعره. ويعكس نظام القيم اولويات الحاجات وفهم الاحداث والظواهر. فوعي القيمة طبيعة محددة من صيغ النشاط الثقافي تؤدي بدورها في عملية تنشيط العمل الاجتماعي. وينبغي الا تتعارض مع المعرفة العلمية، الامر الذي اذا ما حصل يغرب الانسان عن ذاته ويخلق ازدواجية خطرة في وعيه.

ويترتب على وعي المعرفة ووعي القيمة وعي الهدف. ان ادراك هدف نشاط الانسان يشكل الحوافز والدوافع والارادة. فالاهداف تنبّؤ وخطط وبرامج تدرج النشاطات التي تنفذها وتديرها.

وبفضل القانون الداخلي للابداع الادبي فانه يعكس عناصر الثقافة الثلاثة الرئيسية بأسلوب جمالي ضمن صور حسية تحتفظ خصوصيتها بقدرة تعميمية تثير توترا لدى المتلقي وتدفعه الى الاندماج مع التجربة الانسانية المطروحة وتستوحي من أسلوب العرض وتقييماته ومن مثاله الذي يضمنه خلاصة ابداعه فتغدو التجربة المطلوبة، بما خلقته من تعاطف وتوتر تجربة ذاتية للمتلقي. فالادب يغوص في جوهر الروح الانسانية ويعرضها في كل مرحلة تاريخية بنماذج متغيرة تعكس الشروط الاجتماعية المتولدة. فالادب يجسد المشاكل الانسانية لحياة المجتمع والانسان ويحتفظ لنفسه بقدرة فريدة على التجسيد.

فالادب الواقعي يغني المعارف ويخصب القيم ويفعل في العقل والوجدان ويتولى عبء صياغة الضمير الاجتماعي الموحد. وفي مجتمع ينزلق خلف شهوات الاستهلاك والاختلال الاجتماعي وضياع الفرد

لانها ممارسات يومية في الحياة الاجتماعية، وفي مجتمع تقف سطوة التقاليد والقوانين بوجه انتاء الانسان الاجتماعي وتطرح معايير سلوكية متخلفة كالفهلوة والانتهازية والالتواء، تنتصب على مفترقات الطرق بأضوائها الحمراء والخضراء، فان الفن المواقعي ينزل الى الشوارع وورش العمل يوحي بصوره الفنية ونماذجه الواقعية بواجب الانسان حيال واقعه ويرسم له مثاله وهدفه المندمج بالاهداف الاجتماعية التقدمية.

إن أدبا مسلحاً بالمعرفة العلمية الشاملة والعميقة، ويمتلك نظرة كونية فلسفية، يستطيع ان يمتلك، كما قال غوركي، «القدرة على النظر من عل الى رذائل الماضي المسمومة التي لا تطاق، والنظر اليها من سموّ أهداف المستقبل العظيمة. ولا بد وأن يثير موقع النظر السامي هذا بل سيثير حتما ذلك الحماس الفخور والبهيج الذي يملأ ادبنا لهجة جديدة ويساعده على خلق اشكال جديدة».

اذن يكمن سر الابداع الفني للصور والنماذج الاجتماعية في الغنى الثقافي للاديب. وفي الرؤية الفلسفية تكمن قدرة الأدب على التقييم ووضع المثال. القدرة على التأثير في الوجدان والعقل. وبهذا التركيب ينفرد الادب والفن بقدرة استثنائية على تغيير الانسان بواسطة الانسان، ويجعل الادب والفن ضرورة لا غنى عنها بين شتى اشكال الوعي الانساني واجناس التعبير الفكري، الفن عامة طاقة محولة وقوية للانسان وتحظى بقدرة خاصة على تطوير شخصية الانسان بواسطة الانسان، واجناس التعبير الفكري. الفن عامة طاقة محولة وقوية للانسان وتحظى بقدرة خاصة على تطوير شخصية الانسان المنسجم وتكامل العناصر المعرفية والخلقية والجمالية في الشخصية الانسانية.

منزلقات الابداع الواقعي

ان التقدم المادي للحضارة البرجوازية قد رافقه هبوط في القيم، وهذا أمر طبيعي نجم عن ان البرجوازية تبني المجتمع والعالم على مثالها الخاص، وتسعى لتقديم هذا الواقع المتناقض من القمة حتى اخمص القدمين دليلا ضد التقدم المادي للبلدان النامية. انه مسعى للامبريالية بمثابرة كي تظل الأقطار النامية معتمدة عليها اقتصاديا وبالتالي ثقافيا وسياسياً.

في الحضارة البرجوازية يتناقض المثال الفردي مع تعاظم الطابع الاجتماعي لقوى الانتاج، وهذا انعكاس للتناقض المأزوم بين قوى الانتاج وعلاقاته لدى البرجوازية. وفي الحضارة الغربية يتغرب المنتج عن انتاجه ويتغرب المنتج الثقافي عن انتاجه ويعم التغرب شتى اجناس الابداع ومنها الابداع الفني وتتكاثر بشكل وَرَميّ المدارس الادبية والفنية التي تنزع لفصم العلاقة بين شكل الادب ومضمونه وترفع من قيمة الشكل الجمالي على حساب المضمون، وهو ما ينتج عنه سيل الفن الاستهلاكي، فن المتعة والتخدير وتزجية الوقت.

وتُصدَّر هذه المدارس الفنية الى عالمنا العربي، وتجد القبول لدى هواة الصرعات والعاجزين عن تحمل العبء والمسؤولية للالتزام الفني بالواقع. وعندما يسيطر الاقتصاد الاستهلاكي وممارساته الطفيلية داخل المجتمع، تمتدّ كالعروق داخل الجسم شبكة من الطفيليين تفرخ قيمها وامزجتها ونظراتها وتحتضن ما تشاء لها من انواع الفنون والثقافة. «فانتاج الآراء والتصورات والوعي يتشابك مباشرة بنسيج من العلاقات مع النشاط المادي والارتباطات المادية للانسان. إنه لغة الحياة ذاتها».

ولا تلقى الواقعية الفنية الترحيب لدى مؤسسات الثقافة الاستهلاكية وقد لا تجد لديها التسامح. ومن المحتم ان البرجوازية لا تتسامح ازاء عرض جوانب معينة من الواقع الاجتماعي مما يترك اثرا مشوها على الابداع الادبي، فيتم التحايل على المنع بالاغراق في الترميز الذي قد يفضي الى الرمزية الادبية.

الى جانب ذلك هناك منزلقات قد ينزلق فيها الاديب او يدفع اليها في ظروف خمود الحركات الشعبية واجواء القمع السياسي. فالاديب الذي لا ينخرط مع حركة الجماهير وينعزل عن نبض الحياة الاجتماعية وتدفق الحياة الخصيب ربما يتورط في الذهنية والتجريدية والتصورات الذاتية ويفتقر ابداعه الى المضمون الاجتماعي وفي هذه الحال يجنح ابداعه الى المثالية.

واحيانا قد يغري الأديب بالاستقلالية عن النشاط الاجتماعي متذرّعا بخصوصية الابداع وذاتية المبدع. وفي هذه الحال لا بد وان تنفصل في وجدانه العلاقة بين قيم التقدم ومثله او تبهت.

فالادب الحقيقي النابض بالحيوية والمبدع حقا انما هو الادب المتلاحم مع الحركة الاجتماعية للجماهير ومع نشاطاتها ومعاناتها وابداعاتها. ولا يكفي مجرد الاعلان عن الالتزام الطبقي او الإيديولوجي حيال الجماهير حتى يأتي الانتاج الادبي واقعيا. فالايديولوجيا لا تعطي سوى الاتجاه العام. اما معرفة التضاريس فتقتضي مكابدة التجربة.

على ان ذلك لا يعني ان الكاتب لا يبدع الا من وحي تجربته الخاصة، فتجارب الآخرين وشتى اشكال التجربة غير المباشرة ذات نفع في الابداع الادبي.

وهناك منزلق آخر أكثر خطورة قد يفقد الابداع الادبي حرارته وتوهجه وصدقه الفني، ذلك هو تسلل الثوابت الفكرية البرجوازية داخل وجدان الاديب او استقرارها في اللاوعي كمائن تتسرب مع ابداعه الفني. اللاواعي عامل في الابداع تمتزج معه تأثيرات الواقع المنعكسة من خلال احساس الفنان المرهف ومع الخبرات المتراكمة وتتفاعل في اعماق النفس وتضطرم قبل ان تنبجس في معاناة الحدس الفني. ورغم بقاء الحدس الفني لغزا مقفلا الا انه لا بد وأن يشكل إحدى ملكات الابداع ويحتوي عناصر الخبرة البشرية التي غيّبت في اللاوعي او ما تزال تلوح في الذاكرة.

والتربية البرجوازية تتم عبر المؤسسات التعليمية والثقافية وكذلك تتشكل من خلال التأثيرات اللاواعية لانماط المعيشة اليومية واغراءاتها واملاء المعايير السلوكية القائمة. يحدث ذلك على المبدع مثلما يحدث ازاء الفرد العادي. وربما يقف اكبر حليف للثقافة البرجوازية انها تحتضن المألوف والقائم من النظرات والقيم. بينما النظرات التقدمية تقاتل وتكابد حتى ترسي قواعدها وتمد جذورها

داخل المجتمع. ولن تسود هذه الثقافة الا بسيادة المصالح الاجتماعية الممثلة لها.

الحريات الديمقراطية أولا

من التقاليد التي تنتصب اليوم عقبة مانعة بوجه التقدم استلاب الجماهير العربية والحجر عليها. فقد عطل التقليد الطاقات الاجتماعية الاساسية وجمدها قرونا عدة فحكم عليها بالاسترخاء والبلادة، وألقاها خارج تخوم العصر الحديث ترسف في اصفاد الجهل وتحت نير العسف. كانت النظرة للجماهير (الرعاع) انعكاسا لموقعها الممتهن في العلاقات الاقتصادية وتبريرا لاستلابها، وغدت هذه النظرة معيارا سلوكيا مألوفا.

وحافظت السلطات الكولونيالية المنتدبة على العالم العربي على علاقات الاقطاع وقيمه ومعاييره وتحالف الانتداب مع الاقطاع وهياكله ورموزه وبقيت النظرات الاقطاعية الى الجماهير عادة سلوكية للفئات والطبقات المهيمنة او المتسلطة، استلهاما للنظرات الاقطاعية وتأثرا باخلاقياتها ومعاييرها، وحرصت الكولونيالية ايضا على امداد هذه العادة بالمقومات واللقاحات.

لم تكن للبرجوازية العربية نظراتها الثورية ازاء علاقات الاقطاع وقيم العصور الوسطى. وفي أكثر الحالات ابدت الخوف من الثورة وحرصت على الدخول في المساومات وعقد الصفقات مع سلطة الانتداب في محاولة لتجنب النهوض الثوري للجماهير.

واحيانا كانت تناهض تحركات الجماهير ودوما عارضت المطالب الطبقية للجماهير الشعبية.

وايا كان تركيب السلطة الوطنية التي خلفت سلطة الانتداب فقد ورثت عنها موقف الحجر على الجماهير واعلنت وصايتها على منظماتها وقيدتها ضمن قوالب حديدية ضيقة شوهت نموها وعطلت الاجهزة الحيوية داخل المجتمع.

وايا كان شكل تحقيق الاستقلال السياسي او طبيعة التطورات الاجتماعية اللاحقة فقد تطور الحجر على الجماهير الى حالة من انعدام الحريات الديمقراطية وتعزيز اجهزة القمع والارهاب وتسليطها على الجماهير. جاءت الظاهرة امتدادا غير متقطع لاستبداد العصور الوسطى ونظراته الى الجماهير وموروثة من انعدام التسامح والتعصب وامتهان الكرامة الانسانية وتعطيل طاقاتها.

ان الاستبداد والتعسف مسؤولان عما يعانيه العالم العربي من ضعف امام التطاولات العدوانية من جانب اسرائيل وحلفائها، وهو مسؤول عن الخواء الفعلي للقوة العربية، لانه يعطل طاقات بشرية اساسية ويجمدها والاستبداد والتعسف مسؤولان عن الازمة التي تعانيها الثقافة العربية وتعارضها مع ضرورات الواقع وحاجاته.

فالثقافة لا تنتعش الا في مناخ من الحرية. فطالما ان الثقافة حصيلة النشاط الاجتماعي المغير للبيئة فان فك القيود عن هذا النشاط واشراك الجماهير في بناء حياتها الجديدة، وتحقيق التنمية المادية في الصناعة والزراعة يثمر في حقل الثقافة خبرة بالبيئة وألفة توثق صلة الانسان بواقعه.

ان الحريات الديمقراطية حالة من تفجر الطاقات الشعبية وتحريكها كي تصنع التاريخ الجديد وتحقق التحولات الاجتماعية في جميع ميادينها وهي تتضمن نظرة الى الجماهير الشعبية كمنتجين للخيرات المادية وصانعي القدرة المادية في المجتمع وملهمي الانتاج بكل ما يزخر به

والحريات الديمقراطية هي العقدة الرئيسية التي تربط الاعلام الجماهيري بالثقافة الوطنية والادب المبدع. اذ ان نهوض الجماهير الى صنع الحياة وممارسة النشاط الاجتماعي يفتح وعيها على الواقع وملابساته وتناقضاته وتلعب المنظمات الجماهيرية النقابية والسياسية دورا اعلاميا تعبويا حول الحقيقة الموضوعية ويفضح الكذب والزيف وشتى انماط التحايل والخداع.

فلا وسيلة كالممارسة العملية تنجح في مكافحة التضليل والوان الخداع. وبنهوض الجماهير الى النشاط العملي يتوجه اهتمامها الى اجناس النشاط الثقافي والابداع الادبي ويحدث التلاقح الخصب بين ابداع الجماهير وابداع المنتجين في حقول الثقافة.

ولما كانت الثقافة تمثل مستوى من سيطرة الانسان على البيئة بفضل معرفتها، فان الثقافة مرادفة لحرية الانسان وسيادته على واقعه هذه الحرية المحكومة بالضرورة الطبيعية والاجتماعية وبسيطرة الانسان على علاقاته الاجتماعية وسيطرته على نزواته.

فالثقافة التزام حيال الحقيقة الموضوعية والتزام ازاء الحرية.

ان مفهوم الثقافة لا يستقيم الا بموقف داعم للحرية، مساند لحق الجماهير الشعبية في التحرك السياسي والتنظيم، واثق من ان كلمة الجماهير تنسجم ومنطق الحقيقة الموضوعية وتتطابق مع الاتجاه الصاعد للعملية التاريخية.

الهوامش

١ - ليفين - الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث - ترجمة بشير السباعي - ص ١٦٢.
٢ - ماركس - الإيديولوجيا الالمانية - ص ٦٥.
٣ - زكي مراد - ثورة يوليو - قضايا فكرية - دار الثقافة الجديدة - ص ٣١
٤ - المصدر السابق
٥ - د. اميل توما - ستون عاما على الحركة الوطنية الفلسطينية - ص ٧٨
٦ - الدكتور علي محافظة - عهد الامارة - ص ٣٥
٧ - بلاغ رئيس الوزراء - آذار ١٩٣١
٨ - الدكتور علي محافظة - نفس المصدر - ص ٦٥
٩ - سليمان الموسى ومنيب الماضي - تاريخ الاردن - ص ٢٦٦
١٠ - المصدر السابق - ص ١٢٦
١١ - د. سمير قطامي - الحركة الادبية في شرقي الاردن - ص ٦
١٢ - المصدر السابق - ص ٧
١٣ - المصدر السابق - ص ٨.
١٤ - المصدر السابق - ص ١٦٩
١٥ - د. وليد سيف - في حفل تسليم جائزة عرار الادبية بمقر رابطة الكتاب الاردنيين.
١٦ - الدكتور سمير قطامي - نفس المصدر - ص ٢٨
١٧ - زكي مراد - نفس المصدر - ص ٢٧.
١٨ - نيوزويك - ٧ نوفمبر ١٩٨٢.
١٩ - المصدر السابق.
٢٠ - الاوبزيرفر عدد ١٠٠٢٣ بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٩٨٣.